طريق التمكين

لأبي عبيدة

عبد الله خالد العدم

إهداء...

إلى الأستاذ المعلم سيد قطب الذي أنار طريق الموحدين وبصَّرهم درب الحق المبين وكشف زيف الطواغيت المتألهين.

إلى الإمام المجدد الشيخ عبد اللّٰه عزام الذي أحيا في هذه الأمة روح الجهاد والاستشهاد بعد أن ظن الكثير أنها قد مسحت من عقول المسلمين.

إلى سيد الرجال وأمير الاستشهاديين ومحطم أحلام الصليبيين وأذنابهم الروافض والمرتدين الشيخ المجاهد المعتز باللّٰه أبي مصعب الزرقاوي رحمه اللّٰه.

أجزل اللّٰه لهم الثواب

فهرس الموضوعات:

المقدمة: ٢
واقع أمة الإسلام اليوم وحقيقة من يحكمها: ١٠
الحركات الإسلامية ومنهجها في التغيير: ٢١
الإخوان المسلمون ومنهجهم في التغيير: ٢٣
الإخوان المسلمون وديمقراطية الفشل: ٣١
حزب التحرير الإسلامي: ٣٦
حزب التحرير ومنهجه في التغيير: ٣٧
السلفية الإصلاحية: ٤٤
السلفية الإصلاحية ومنهجها في التغيير: ٤٩
طريق التمكين: ٥٩
الانخراط في صفوف الجماعة المسلمة: ٦١
تعريف الجماعة المسلمة: ٦٤
وجوب التزام جماعة المسلمين وعدم التفرق بالدين: ٦٩
أهم صفات وسمات الطائفة المنصورة: ٧٥
على من تنطبق صفات الطائفة المنصورة في هذا الزمان: ٨٢
السمع والطاعة لأمراء الجماعة: ٨٨
السمع والطاعة: ٨٨
الأدلة على وجوب السمع والطاعة: ٩١
عواقب وتبعات معصية الأمير: ٩٧
توقير الأمير: ٩٩
الالتزام بمبادئ وأهداف الجماعة والثبات عليها واختيار الأسلوب الأمثل لتحقيق الغاية: ١٠١
الجهاد في سبيل الله الوسيلة المفضية إلى التمكين: ١١٠
فضل الجهاد والاستشهاد في سبيل الله: ١١١
مسوغات الجهاد ودوافعه: ١١٧
الجهاد الطريق الأمثل والسبيل الأقصر لبناء الأمم وإقامة المجتمعات: ١٢٨
موقف الجماعات الإسلامية من الجهاد في سبيل الله في عصرنا الحاضر: ١٣٣
نداء إلى أصحاب البروج العاجية: ١٣٨
الابتلاء والصبر على هذا الطريق: ١٤٠
الابتلاء بوابة الطريق الموصلة إلى النصر والتمكين: ١٤٦
الابتلاء عنوان صدق الدعوة وصدق روادها: ١٥٨
خصائص الفئة المؤمنة: ١٦٣
النصر والتمكين: ١٧٠
سنة الله في تنزل النصر والتمكين: ١٧٢
الانتصار وحقيقته الكبرى: ١٧٦

المقدمة

الحمد الله الذي خلق الخلق بقدرته, وبيَّن لهم طريق النجاة في كتابه, الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه, والصلاة والسلام على رسوله النبيّ الأكرم, والقائد الملهم, والقدوة المعلم محمد صلى الله عليه وسلم, وعلى آله الأطهار الأبرار, وصحابته الغرّ الميامين الكرام, وعلى من سار على هديهم واقتفى سنة آثارهم وإلى يوم الدين.

أما بعد..

فإن الناظر اليوم, في حال الأمة الإسلامية, ليدرك كل الإدراك, أن ما حلَّ بها من ذلة وهوان, وانكسار وانحدار, ما هو إلا نتيجة حتمية لغياب منهج الله عن واقع حياتها, وتسلط جبابرة مرتدين عليها, حالوا بكل مكر أوتوه أن يحولوا بينها وبين دستور ربها الكريم, وكردة فعل على هذا الواقع المرير, وسواء كان ذلك الرد بحسن نية أو غير ذلك, فقد ابتدع الكثيرون مناهج مصادمة لمنهج الحق المبين, الذي نزل على قلب سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم, ومنَّوا أنفسهم أنه الطريق القويم, والمنهج السديد الرشيد, الموصل لإقامة حكم الله في الأرض, وتشييد المجتمع المسلم.

فطائفةٌ من هؤلاء النفر ارتضت الديمقراطية الشركية طريقاً سوياً موصلاً إلى إقامة المجتمع المسلم والتمكين لدين الله في الأرض, بل جعلته الخيار الوحيد والأوحد تبذل دونه المهج والأرواح.

وطائفةٌ أخرى: أبت إلا أن يكون تربية النفوس, وتصفيتها وتزكيتها, لتضاهي الصديق, وعمر, وعثمان, رضوان الله عليهم, نقاءً وسمواً, وارتقاءً وجلالاً, شرطاً واجب التحقق, قبل الشروع بالعمل لإقامة المجتمع المسلم, أو حتى الجهاد في سبيل الله.!

وطائفةٌ ثالثة: اكتفت بتبليغ الناس دين الله, بالحكمة والموعظة الحسنة, والكلمة الطيبة, مؤثرة السلامة, مُدَّعية أن إصلاح الناس, يتبعه تلقائياً إقامة المجتمع المسلم.

ورابعةٌ: ما زالت منذ ما يزيد عن خمسين عاماً, تنتظر النصرة وتتحين الفرصة, لتتسلم زمام الحكم, وتقيم دولتها المنشودة, ومن ثم تشيد خلافة الله في الأرض.

وأخرى خامسة: أبت إلا أن يكون إنشاء المؤسسات المدنية, وإقامة المنابر الإعلامية, وتشييد المدارس, والتغلغل في أوساط المجتمع المدني وأسلمته من الداخل, هو الطريق الأمثل لإقامة دين الله في الأرض, وتعبيد الناس لربهم, وبناء المجتمع المسلم.

ونحن في خضم هذا الموج الطافح, من الأفكار والأطروحات والنظريات, التي سطرتها أنامل النُّقص من عقول البشر, معتمدين كل الاعتماد, على ما توحي إليه أذهانهم وعقولهم, وفي حالات أخرى, أهواؤهم ومصالحهم, ورغباتهم.! وادعاء كل صاحب طريقة منها وأسلوب عمل, أنه الأجدر والأصلح لإقامة المجتمع المسلم ! وأن الحق قد حالفه وسار بجانبه! دون أن يكلف نفسه عناء الإطلاع, ودراسة سير الأمم السابقة, ومعرفة سنة الله في إقامة المجتمعات, والتفكر جدياً بأحوال الرسل, وأحوال أتباعهم, وورثتهم, وكيف شيدوا مجتمعاتهم, وأسسوا بنيان أممهم.

بين دفتي هذه الطرق المعوجة والسبل الملتوية, التي جنحت فيها عن جادة الحق والصواب, قوافل الكثير ممن حملوا على عاتقهم إحياء البعث الإسلامي, وتشييد الخلافة الإسلامية, وأبحروا بعيداً عن منارات مرافئ الرسل وأتباعهم, ليتخبطوا حيارى تائهين في رمال أطروحاتهم ونظرياتهم, وأمواج أفكارهم وأساليب عملهم, التي مكنا الله منها وأتينا على بنيانها من القواعد, كما سيرى ذلك قارئ هذه الورقات ... أقول بين هذا وذاك: فتح الله علينا ويسر لنا, ومنَّ علينا بجوده وكرمه, وشاء لنا أن نسطر لأبناء التوحيد, المتشوقين لإقامة دين الله في الأرض, ما ندين الله به, ونعتقد صحة صوابه, وأنه السبيل الأمثل والطريق الأقوم, الموصل للتمكين لدين الله في الأرض, وتشييد الخلافة الراشدة, آخذين لتحقيق هذا الهدف المنشود, ما أمرنا الله عز وجل الأخذ به, معتبرين كل الاعتبار بالسنن الربانية, مسترشدين بسنا أولئك الأفذاذ من الأنبياء والرسل, وورثتهم الذين جاهدوا في الله حق جهاده, حتى أتاهم نصر الله: } لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ { (يوسف:١١١)

ومن الجدير ذكره في هذا المقام, أن جُلَّ تصوري هذا المتمثل في العمل لهذا الدين, والتمكين له تصور مستمد من قوله صلى الله عليه وسلم: (وَأَنَا آمُرُكُمْ بِخَمْسٍ اللهُ أَمَرَنِي بِهِنَّ بِالْجَمَاعَةِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَالْهِجْرَةِ وَالْجِهَادِ.) , وهو كذلك تصور قد سبق وأشار إلى بعضه إمام الجهاد في هذا العصر, ومجدد فريضته الغائبة الشيخ عبد الله عزام -رحمه الله- في إحدى خطبه.

هذا ومما يجب أن يدركه أخو الإسلام, أن مسطر هذه الكلمات إليه هو ممن تربى في أسر الإخوان المسلمين في الأردن, وبالتحديد في مدينة الزرقاء - المعقل الرئيسي للإخوان في الأردن - ولطالما بذل جهده ووقته واستفرغ وسعه طمعاً في مؤازرة تلك الجماعة, والتمكين لها ونشر فكرها, و توزيع نشراتها.

ولم يقتصر جهده على مؤازرة الإخوان وتأييدهم وحسب, بل كان لجماعة الدعوة والتبليغ نصيب من وقته, ولطالما شدَّ رحاله

إلى معقلهم الرئيسي في مدينة الحجاج, حيث مسجدهم ومنظرهم الشيخ عوض - حفظه الله - كل ذلك طمعاً في معرفة الحق, وتحصيل الأجر والثواب.
وهذا الذي سبق وذكرته إنما هو عنوان حق ليدرك باغي الخير, أن كاتب هذه الكلمات, هو ممن عايش الجماعتين السالف ذكرهما, واطلع على أدبياتهما وبرامج عملهما, واستمع لمفكريهم ومنظريهم, وأدرك كل الإدراك - ولكن بعد الهجرة والجهاد نسأل الله القبول والإخلاص والثبات والرشد في الأمر - أن إقامة حكم الله في الأرض, والتمكين لدينه, لا يمكن بحال من الأحوال أن يتأتى بتلك الطرق البالية التي يسلكها من نأى بنفسه عن منهج الله, وأنه من المستحيل بمكان, أن يقام لهذا الدين بنيان, بتلك الأساليب الزائغة عن الحق, والتي تتصادم مع ما جاء به الحبيب الهادي محمد صلى الله عليه وسلم, وتتجافى كل الجفاء مع سنة الله في إقامة المجتمعات, وتشييد الممالك وبناء الأمم.
إن طريق بناء الأمم, طريق طويل لاحب, ودرب وعر شاق, دونه المهج والأرواح والدماء والأشلاء:

تبنى الممالك بالوشيج الأسمر والبيض تلمع في العجاج الأكدر
وبكل أجرد شيظم يعدوا إلى الهيجا بمقتحم المهالك مُسعر

نعم يا أتباع الرسل: أما آن لكم أن تدركوا أن تشييد الممالك وبناء الأُمم, لا بد له من ضريبة, ولا مناص عن دفع الثمن, ولا مفر من تقديم المهر الغالي وأيّ مهر يا ترى:

من رام تفسير الحياة لقومه فدم الشهيد يبين عن معناها
لولا الدماء تراق لم نر أُمة بلغت من المجد العريض مناها

نعم يا ورثة الأنبياء: هذا هو الطريق إن كنتم جادين في تفيء ظلال الخلافة الراشدة, وإعادة سلطان الله إلى الأرض.
هذا وإنني أتضرع إلى الله العلي القدير, أن يتقبل منا هذا العمل, ويجعله خالصاً لوجهه الكريم, وأن يجعل فيه الخير والسداد لأبناء التوحيد, المتشوقين لإقامة حكم الله في الأرض, والهداية والرشاد لمن ناوأهم, من أصحاب المناهج المخالفة لمنهج الحق المبين, واعلم حفظك الله أن هذا جهدٌ بشري, فما كان منه صواباً فمن الله وحده لا شريك له, وما كان من خطأ فمن نفسي والشيطان, والله ورسوله منه بريئان, واستغفر الله من ذلك.

كُتب من بعض الثغور في ١٨رمضان ١٤٢٧هـ / الموافق ١٠ اكتوبر ٢٠٠٦م

أبو عبيدة
عبد الله بن خالد العدم
كان الله له

واقع أُمة الإسلام اليوم وحقيقة من يحكمها

إن المتأمل اليوم في حال الأمة الإسلامية, لتأخذه العبرة وتلفه الحسرة, وهو يرى ويشاهد خير أمة أخرجت للناس, وقد غدت نهباً مشاعاً للأمم الساقطة, ومرتعاً لأراذل أبنائها, وحماً مستباحاً لكل غازٍ متجبر, بعد أن كانت تغزو ولا تُغزا, وتحكم ولا تُحكم, وتسود ولا تُساد.

وإن سليم الفطرة الناظر بنظرة مجردة من الأهواء, ليدرك كل الإدراك, أن سبب هذا الهوان, وما وصلت إليه هذه الأمة الماجدة من خور وضعف, وذلة وهوان, وتسلط لا يطاق من أمم التثليث النصراني, ومجاميع الضلالة والإلحاد عليها, ما هو إلا نتيجة حتمية لغياب شرع الله المحكم عن واقع الحياة, واستبداله بشرائع ودساتير جاهلية, سنها وأشرف عليها المتألهون من شياطين الإنس, الذين ارتضوا لأنفسهم مشاركة الله جل جلاله حق التشريع, الذي هو من أخص خصائصه.

ولما أن كان حكام المسلمين وملوكهم, جزءاً لا يتجزأ من تلك المنظومة الجاهلية, التي أعطت لنفسها حق التشريع للناس من دون الله, كان لزاماً علينا أن نبين لأبناء التوحيد الغيارى على دينهم, حكم الله في هؤلاء الطواغيت المتألهين, والأدلة على كفرهم, حتى يتسنى لطلاب الحق, الباحثين عن النجاة, معرفة حقيقة هذه الدمى المتربعة على كراسي الحكم, ومعرفة حقيقة الموالين لها, الراضين بحكمها, المسدلين ستار الشرعية على حكمها البائس النكد.

ويتيقنوا وبلا شك كذلك, أن العمل لهذا الدين, وإقامة المجتمع المسلم, لن يأتي ولن يتأتى من خلال تلك المظلة الطاغوتية, التي تبارك جهود من يتفيء ظلالها, سواء كان ذاك الرضا, وتلك المباركة التي لا تحمد, مباشرة أو غير مباشرة.

وحتى لا أطيل عليك يا أخا العقيدة والدين, يا أيها الباحث عن الحق المبين, أسوق إليك بعضاً من الآيات البينة, والأدلة الدامغة, على كفر وردة هؤلاء الطواغيت, عُبّاد الياسق العصري, المتسلطين على رقاب المستضعفين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم, حتى لا تنخدع بتلك الهامات الساقطة, وبمن يروج لها بين عباد الله, من علماء سوء, وقادة فكر, ومنظري جماعات, والله الهادي إلى سواء السبيل.

فلقد بيَّن الكثير الكثير, من العلماء الربانيين في هذا العصر, وفي العصور السالفة, كُفر الحكام المستبدلين شريعة الرحمن, وفصلوا فيه تفصيلاً شافياً كافياً, وما ذاك إلا لخطورة هذه القضية, فالكفر بالطاغوت والتبرأ منه شرط أساس من شروط لا إله إلا الله, فـ لا إله تعني وجوب الكفر بكل الآلهة التي تعبد من دون الله قال تعالى: (فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى), فالكفر بالطاغوت مقدم على الإيمان بالله, ولا يصح إيمان العبد إلا إذا كفر وتبرأ من تلك المعبودات, ومن أولئك الأنداد الذين يتخذهم البشر, آلهة من دون الله جل وعلا.

وقد عرَّف علماء اللغة الطاغوت بقولهم كما نقل ذلك الواحدي: قال جميع أهل اللغة: الطاغوت كل ما عبد من دون الله, يكون واحداً وجمعاً ويُذكّر ويُؤنّث, قال تعالى: {يُريدون أن يَتحاكموا إلى الطاغوتِ وقد أمروا أن يكفروا به} فهذا في الواحد وقال تعالى في الجمع: {والذينَ كفروا أولياؤهمُ الطاغوتُ يُخرِجونهُم منَ النور إلى الظلماتِ} وقال في المؤنث: {والذينَ اجتنبوا الطاغوتَ أن يعبدوها}.) .

أما الطاغوت شرعاً:

فقد عرفه الإمام ابن جرير رحمه الله, بعدما نقل خلاف السلف في تعريف معنى الطاغوت بقوله: والصواب من القول عندي في الطاغوت أنه كل ذي طغيان على الله, فيعبد من دونه, إما بقهر منه لمن عبده وإما بطاعة ممن عبده له, إنساناً كان ذلك المعبود أو شيطاناً, أو وثناً, أو كائناً ما كان من شيء.) .

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله في تعريفه للطاغوت: والطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع, فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله صلى الله عليه وسلم أو يعبدونه من دون الله أو يتبعونه على غير بصيرة من الله أوً يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله, فهذه طواغيت العالم إذا تأمّلتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم أعرض عن عبادة الله إلى عبادة الطاغوت, وعن التحاكم إلى الله وإلى الرسول صلى الله عليه وسلم إلى التحاكم إلى الطاغوت, وعن طاعته ومتابعة رسوله صلى الله عليه وسلم إلى الطاغوت ومتابعته) .

أما أوجه كفر حكام بلاد المسلمين وردتهم, فهي عديدة نسوق إليك أظهرها لتكون على بينة من أمر هؤلاء المرتدين الخونة.

أولاً: إعطائهم لأنفسهم حق التشريع, وحكمهم بغير ما أنزل الله, واستبدالهم بشريعة الرحمن شريعة الشيطان.

لقد أجمع علماء الأمة على أن من أحلَّ الحرام المتفق عليه, أو حرم الحلال المتفق عليه, أنه كافر مرتد, وأن من جحد شيئاً معلوماً من الدين بالضرورة, أو استهزأ به, أو أعرض عنه, أو أعطى لنفسه حق التشريع من دون الله, فهو كافر مرتد خارج عن ملة الإسلام.

قال تعالى: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ} (التوبة: ٣١)وقال تعالى: {وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ

وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} (الأنعام ١٣١) وقال تعالى:{وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}(الشورى:١٠)

قال جل وعلا: } وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ { (المائدة: ٤٤)

وقال جل شأنه في سورة المائدة: } أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ{(المائدة: ٥٠)، وقال عز من قائل:} أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللّهُ {(الشورى: ٢١)، وقال سبحانه وتعالى في موضع آخر: } إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ { (يوسف: ٤٠)

قال الإمام أبو يعلى: ومن اعتقد تحليل ما حرم الله بالنص الصريح، أو من رسوله صلى الله عليه وسلم، أو أجمع المسلمون على تحريمه، فهو كافر، كمن أباح شرب الخمر ومنع الصلاة والصيام والزكاة، وكذلك من اعتقد تحريم شيء حلله الله وأباحه بالنص الصريح، أو أباحه رسوله صلى الله عليه وسلم أو المسلمون مع العلم بذلك، فهو كافر، كمن حرّم النكاح والبيع والشراء على الوجه الذي أباحه الله عز وجل، ومن فعل ذلك فهو كافر بإجماع المسلمين) .

وقال الإمام ابن زيد رحمه الله تعالى، في تفسير قوله سبحانه وتعالى: { ومن لم يحكم بما أنزل الله}: من حكم بكتابه الذي كتبه بيده وترك كتاب الله وزعم أن كتابه هذا من عند الله تعالى فقد كفر.) .

وقال الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى، في تفسيره لقوله تعالى: { ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون }: ومن كتم حكم الله الذي أنزله في كتابه وجعله حكماً بين عباده، فأخفاه وحكم بغيره {فأولئك} الذين لم يحكموا بما أنزل الله في كتابه، ولكن بدلوا وغيّروا حكمه وكتموا الحق الذي أنزله في كتابه {هم الكافرون} هم الذين ستروا الحق الذي كان عليهم كشفه وتبينه وغطوه عن الناس وأظهروا لهم غيره وقضوا به لسحت أخذوه منهم عليه..) .

وقال الإمام أبو بكر الجصاص في تفسير قوله تعالى: (فلا وربك لا يؤمنون...) الآية: وفي هذه الآية دلالة على أن من رد شيئا من أوامر الله تعالى، أو أوامر رسوله صلى الله عليه وسلم، فهو خارج من ملة الإسلام، سواء رده من جهة الشك فيه، أو من جهة ترك القبول والانقياد والامتناع عن التسليم, وذلك يوجب صحة ما ذهب إليه الصحابة في حكمهم بارتداد من امتنع عن أداء الزكاة) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: ومعلوم بالاضطرار من دين المسلمين، وباتفاق جميع المسلمين، أن من سوغ اتباع غير دين الإسلام، أو اتباع غير شريعة محمد صلى الله عليه وسلم فهو كافر.) .

وقال الإمام ابن راهويه رحمه الله تعالى: قد أجمع المسلمون أن من سب الله تعالى، أو سبّ الرسول صلى الله عليه وسلم، أو دفع شيئاً ممّا أنزل الله، أو قتل نبياً من أنبياء الله، أنه كافرٌ بذلك، وإن كان مقراً بما أنزل الله.) .

وقال الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ: إن الحاكم بغير ما أنزل الله كافرٌ إما كفر اعتقادٍ ناقلٌ عن الملة، وإما كفر عملٍ لا ينقلُ عن الملّة.

أمّا الأول: وهو كفر الاعتقاد فهو أنواع:-

والخامس منها: وهو أعظمها وأشملها وأظهرها معاندة للشرع، ومكابرة لأحكامه، ومشاقّة لله ورسوله، ومضاهاة بالمحاكم الشرعية، إعداداً وإمداداً وإرصاداً وتأصيلاً، وتفريعاً وتشكيلاً وتنويعاً وحكماً وإلزاماً، ومراجع ومستندات، فكما أنّ للمحاكم الشرعية مراجعَ مستمدات، مرجعها كلُّها إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم, فلهذه المحاكم مراجعٌ هي: القانون المُلفّق من شرائعَ شتى، وقوانين كثيرة، كالقانون الفرنسي، والقانون الأمريكي، والقانون البريطاني، وغيرها من القوانين، ومن مذاهب بعض البدعيين المنتسبين إلى الشريعة، وغير ذلك فهذه المحاكم الآن في كثير من أمصار الإسلام مهيّأة مكملة، مفتوحةُ الأبواب، والناس إليها أسرابٌ إثر أسراب يحكُم حُكامُها بينهم بما يخالف حُكم السُنّة والكتاب، من أحكام ذلك القانون، وتُلزمهم به وتُقِرُّهم عليه، وتُحتِّمُه عليهم، فأيُّ كُفر فوق هذا الكفر، وأيُّ مناقضة للشهادة بأنّ محمدًا رسولُ الله بعد هذه المناقضة.) .

ثانياً: موالاتهم اليهود والنصارى، واتخاذهم أولياء, وإعانتهم على حرب المسلمين، والنيل من المجاهدين.

أخبر سبحانه وتعالى في مواطن عدة من كتابه الكريم, أن موالاة الكفار واتخاذهم أولياء، ناقض من نواقض لا إله إلا الله, وكفر صراح، مخرج صاحبه من ملة الإسلام, وما قاله سبحانه وتعالى في هذا الشأن:-

} يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِاللّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَاْ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ { (الممتحنة: ١)

قال الشيخ السعدي في تفسيره لهذه الآية الكريمة: وهذه الآيات فيها النهي الشديد عن موالاة الكفار من المشركين

وغيرهم، وإلقاء المودة إليهم، وأن ذلك مناف للإيمان، ومخالف لملة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، ومناقض للعقل الذي يوجب الحذر كل الحذر من العدو، والذي لا يُبقي من مجهوده في العداوة شيئاً، وينتهز الفرصة في إيصال الضرر إلى عدوه، فقال تعالى: {آمَنُواْ}، أي: اعملوا بمقتضى إيمانكم، من ولاية من قام بالإيمان، ومعاداة من عاداه، فإنه عدو لله، وعدو للمؤمنين. {لاَ تَتَّخِذُواْ} عدو الله {وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِٱلْمَوَدَّةِ}، أي: تسارعون في مودتهم، والسعي في أسبابها، فإن المودة إذا حصلت، تبعتها النصرة والموالاة، فخرج العبد من الإيمان، وصار من جملة أهل الكفران.

وهذا المتخذ للكافر ولياً، عادم المروءة أيضاً، فإنه كيف يوالي أعدى أعدائه، الذي لا يريد له إلا الشر، ويخالف ربه ووليه، الذي يريد به الخير، ويأمره به، ويحثه عليه؟ وما يدعو المؤمن أيضاً إلى معاداة الكفار، أنهم قد كفروا بما جاء المؤمنين من الحق، ولا أعظم من هذه المخالفة والمشاقة، فإنهم قد كفروا بأصل دينكم، وزعموا أنكم ضُلال، على غير هدى..) .

وقال تعالى: } يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَوَلَّوْاْ قَوْماً غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ ٱلْقُبُورِ{ (الممتحنة: ١٣)

قال الإمام ابن الكثير في تفسيره لهذه الآية: ينهى تبارك وتعالى عن موالاة الكافرين في آخر هذه السورة كما نهى عنها في أولها فقال تعالى: { يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءامَنُواْ لاَ تَتَوَلَّوْاْ قَوْماً غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ } يعني اليهود والنصارى وسائر الكفار من غضب الله عليه ولعنه واستحق من الله الطرد والإبعاد، فكيف توالونهم وتتخذونهم أصدقاء وأخلاء، وقد يئسوا من الآخرة أي من ثواب الآخرة ونعيمها في حكم الله عز وجل.)

وقال تعالى: } يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ{ (المائدة: ٥١)

قال الإمام الطبري في تفسيره، بعد أن ساق عدداً من أقوال المفسرين، والصواب من القول هو: إن الله جل ذكره نهى المؤمنين جميعا أن يتخذوا اليهود والنصارى أنصارا وحلفاء على أهل الإيمان بالله ورسوله، وأخبر أنه من اتخذهم نصيرا وحليفا ووليا من دون الله ورسوله والمؤمنين، فإنَّه منهم في التحزّب على الله وعلى رسوله والمؤمنين، وأن الله ورسوله منه بريئان.) .

وقال تعالى في موطن آخر من كتابه الكريم:} لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرْكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ{ (آل عمران: ٢٨)

قال الإمام الطبري في تفسيره لهذه الآية الكريمة: وهذا نهي من الله عزّ وجلّ المؤمنين أن يتخذوا الكفار أعوانا وأنصارا وظهورا، ولذلك كسر «يتخذ» لأنه في موضع جزم بالنهي، ولكنه كسر الذال منه للساكن الذي لقيه وهي ساكنة. ومعنى ذلك: لا تتخذوا أيها المؤمنون الكفار ظهرا وأنصارا، توالونهم على دينهم، وتظاهرونهم على المسلمين من دون المؤمنين، وتدلونهم على عوراتهم، فإنه من يفعل ذلك فليس من الله في شيء، يعني بذلك، فقد بريء من الله، وبريء الله منه بارتدادلاه عن دينه، ودخوله في الكفر، إلا أن تتقوا منهم تقاة، إلا أن تكونوا في سلطانهم، فتخافوهم على أنفسكم، فتظهروا لهم الولاية بألسنتكم، وتضمروا لهم العداوة، ولا تشايعوهم على ما هم عليه من الكفر، ولا تعينوهم على مسلم بفعل.) .

وإن المتأمل في حال حكام المسلمين اليوم، ليرى العجب العجاب، فلم يترك هؤلاء الحكام، باباً من أبواب الموالاة لأعداء الله من يهود ونصارى، إلا طرقوه وولجوه واستجدوا حتى يدخلوه، فها هي مطاراتهم قد غدت مرتعاً خصباً لطائرات أبناء الصليب، يتخذونها منطلقاً لقتل أبناء الإسلام، ولصب حمم كفرهم على العزل من أبناء التوحيد، وها هي أراضي ملكهم، قد غدت حماً مستباحاً لجيوش الكفر، يتخذونها معبراً آمناً لغزو ديار الإسلام.

ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل شاركوهم مؤامراتهم الخبيثة، على الإسلام وأهله والجهاد ورواده، وعقدوا لأجل ذلك المؤتمرات تلو المؤتمرات، والندوات تلو الندوات سلماً لهم، وطمعاً في رضاهم، فتباً لهم ثم تبا.

زد على هذا وذاك، اعترافهم بالكيان اليهودي الغاصب للأرض المباركة "فلسطين"، ووقوفهم سداً منيعاً، وشرطياً مخلصاً، وحارساً أميناً، لحدود تلك الدولة المصطنعة، فسحقاً لهم ثم سحقا.

ولو أردنا استقصاء أبواب موالاتهم لأعداء الله، لوجدنا العجب العجاب، ولشاب الرأس من كمدٍ، ولو أردنا تتبع أبواب الردة، التي ولجوها لما وجدنا ناقضاً من نواقض الإسلام، إلا طرقوا بابه، واندفعوا إليه، اندفاع من لا يعرف الرجوع والتراجع، وإلى الله المشتكى، ولكننا نكتفي بهذا القدر ففيه الهداية والرشاد، لمن أراد الهداية، والله الهادي إلى سواء السبيل.

الحركات الإسلامية ومنهجها في التغيير والوصول إلى إقامة المجتمع المسلم.
تعيش كثير من الحركات الإسلامية اليوم, في حالة مزرية من التخبطات العشوائية, التي لا حد لها في الفكر والمنهج, وطرق الوصول المعتمدة لديها لإقامة المجتمع المسلم.
ومع أنه لم يعد يخفى على من أنار الله بصيرته, وألهمه سبل الرشاد, عور تلك الجماعات, وعور أساليبها ووسائل عملها, إلا أنها ما زالت وبإصرار عنيد راغبة في مواصلة رحلة التخبطات التي لا تجدي نفعاً, مهدرة بذلك طاقة الشباب المخلص من هذه الأمة, الساعي إلى إقامة المجتمع المسلم, وتشييد الخلافة الراشدة.
وحتى لا أطيل عليك أيها العامل لهذا الدين, يا باغي الخير من عند أرحم الراحمين, أسوق إليك وبإيجاز - وذلك قبل الشروع ببيان المنهج القويم في التمكين لدين الله - مناهج بعض الحركات الإسلامية العاملة اليوم, والتي تسعى بدورها, ومنذ عقود طوال لإقامة المجتمع المسلم, ولكن دون جدوى ولا فائدة تذكر, مبيناً أوجه بطلان منهجها, ومخالفته للنهج القويم, الذي جاء به النبي الأمين محمد صلى الله عليه وسلم, والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.
تمهيد:
إن من الأمور المُسَلّم بها عند أبناء التوحيد المخلصين, أن لا يقدموا على أمر ما, حتى يعلموا حكم الله وحكم رسوله فيه, امتثالاً لقوله تعالى: } يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُواْ اللّه إِنَّ اللّه سَمِيعٌ عَلِيمٌ{ (الحجرات: ١) ولما أن كان الأمر كذلك, كان لزاماً عليهم أن يردوا كل أمر تنازعوا فيه, إلى حكم الشريعة الغراء, قال تعالى: } فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً { (النساء: ٥٩)
فإذا علم العبد المسلم ذلك, وجب عليه الانصياع لأمر الله وأمر رسوله, وبلا تردد ولا تلعثم, إن كان حقاً محباً لله ورسوله, مقدماً أمرهم - أمر الله ورسوله- على أمره وهواه كما قال تعالى: } مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللّه وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللّه وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُّبِيناً { (الأحزاب: ٣٦)
أي والله ! إن كل حُكم يخالف حكم الله وحكم رسوله, هو حُكمٌ مردودٌ على صاحبه, يحرم اتباعه والعمل به, مهما خالف توجهات ما اعتاد عليه, أو تعلمه, أو سمعه, أو أشير عليه الأخذ به وتبنيه, لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رَدٌّ) .
قال النووي في شرحه: قال أهل العربية " الرد" هنا بمعنى المردود, ومعناه: فهو باطل غير معتد به, وهذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام, وهو من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم فإنه صريح في رد كل البدع والمخترعات.) .
وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم: فهذا الحديث يدلُّ بمنطوقه على أن كل عمل ليس عليه أمر الشارع, فهو مردود, ويدل بمفهومه على أن كل عمل عليه أمره, فهو غير مردود, والمراد بأمره هاهنا: دينه وشَرعه كالمراد بقوله في الرواية الأخرى: " من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ, فالمعنى إذا: أن مَن كان عملُه خارجاً عن الشرع ليس متقيداً بالشرع, فهو مردود, وقوله: " ليس عليه أمرنا " إشارةٌ إلى أن أعمال العاملين كلهم ينبغي أن تكون تحت أحكام الشريعة, وتكون أحكام الشريعة حاكمةً عليها بأمرها ونهيها, فمن كان عملُه جارياً تحت أحكام الشرع, موافقاً لها, فهو مقبولٌ, ومن كان خارجاً عن ذلك, فهو مردودٌ.) .
وعلى المسلم أن يلتزم الحق وإن خالف هواه, وينصاع لأمر الله إن بان له ولا يعرض, لأن طالب الحق ترضيه كلمة الحق, وطالب الباطل ترضيه الكلمة التي فيها تعظيمه, أما سوى ذلك فلا مجال للقبول, والله الهادي الى سواء السبيل.
قال شيخ الإسلام: وطالب الرئاسة - ولو بالباطل - ترضيه الكلمة التي فيها تعظيمه وإن كانت باطلا, وتغضبه الكلمة التي فيها ذمه, وإن كانت حقا, والمؤمن ترضيه كلمة الحق له, وعليه, وتغضبه كلمة الباطل له وعليه, لأن الله تعالى يحب الحق, والصدق, والعدل, ويبغض الكذب, والظلم.) .

الإخوان المسلمون ومنهجهم في التغيير.

تكمن خطورة هذه الجماعة اليوم, في أنها غدت في نظر الكثير من ساسة الغرب النصراني وأساطين فكره, النموذج الأمثل لوراثة حكم الأنظمة المستبدة, والبديل المنتظر الذي يمثل الإسلام المعتدل, الذي يمكن التعامل معه بطريقة سلسة مرنة, وخاصة بعد أحداث الثلاثاء المبارك, التي أفرزت بنظرهم نماذج متشددة, لا يمكن بحال من الأحوال التعامل معها.
وحتى لا تتشعب بنا السبل في الحديث عن الإخوان المسلمين, وخاصة أننا بصدد الحديث عن منهج التغيير لدى هذه الجماعة, أسوق إليك - وهو المقصود في هذا البحث - منهجها في التغيير, ووسائل عملها في الوصول إلى سدة الحكم, حتى يكون العامل لهذا الدين على بينة من هذا المنهج, المخالف للهدي النبوي, وللسنن الكونية التي أودعها الله في هذا الكون.
فلقد انتهجت جماعة الإخوان المسلمين للوصول إلى سدة الحكم, منهجاً مجانباً ومصادماً ومخالفاً للحق الذي نزل به الروح الأمين, على قلب سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم, فمن شعار الجهاد سبيلنا كوسيلة للتغيير في بادئ أمرهم, إلى الديمقراطية الشركية في نهاية مطافهم, وما أدراك ما الديمقراطية.؟!
إن الديمقراطية تعني: حكم الشعب للشعب, فالمشرع هو الشعب, والحاكم هو الشعب, والمحلل هو الشعب, والمحرم هو الشعب, فلا سيادة تعلو سيادة الشعب ولو كانت سيادة الله, ولا حكم يعلو حكم الشعب, ولو كان حكم الله, ولا إرادة تعلو إرادة الشعب, ولو كانت إرادة الله, وكفى بذلك والله كفراً بواحاً صراحاً.
أما حكم الله في هذه الديمقراطية اللعينة, فقد غدا جلياً بيّناً لكل ذي بصيرة وطالب حق, فلم يغفل أمرها علماء أهل السنة والجماعة, وما فتئوا يبينون حكم الله فيها, ويحذرون كل التحذير من مغبة ولوج بابها, وما ذاك إلا لشرها العظيم الداهم المستطير, أعاذنا الله والمسلمين منه.
وهذا بيان حكم الله فيها, وبيان مناقضتها لدين الإسلام, وملة التوحيد.
أولاً: إن الديمقراطية دين أسه وأساسه قائم على تفويض الشعب, أو الأغلبية منه حق التشريع, وحق سن القوانين من دون الله, وهذا هو الشرك البواح والكفر الصراح, وهذا هو التناقض والتضاد البيّن مع لا إله إلا الله, التي من مقتضاها أن يكون الحكم والتشريع لله وحده لا شريك له قال تعالى:} وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُمْ بِمَآ أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَآ أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ { (المائدة: ٤٩) وقال أيضاً: }أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللّهُ {(الشورى: ٢١)
ثانياً: إن الديمقراطية كدين جديد تعني بوضوح لا لبس فيه, أن الفيصل في فضّ النازعات, وأن الحَكَم عند الاختلاف والتباين, هو الشعب والشعب وحده, فلا يجوز بحال من الأحوال تجاوز إرادة الشعب, فهو الحَكَمُ وهو الفيصلُ, وهذا وبلا شك ناقض من نواقض لا إله إلا الله, فإن من لوازم الإيمان بهذه الكلمة العظيمة ردّ النزاعات إلى الله ورسوله ليحكما فيها قال تعالى: } فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً {(النساء: ٥٩)
وقال تعالى: } وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللّهِ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ { (الشورى: ١٠)
ثالثاً: إن الديمقراطية كدين معاصر تعني, فصل الدين عن الدولة والحياة, أي أن يقتصر الدين كل الدين على التعبد في المساجد والصوامع, بمعنى (دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله) و (الدين لله والوطن للجميع) أما أن يُحَكَّم في شؤون الحياة فلا, وهذا هو جوهر العلمانية البغيضة قال تعالى: } فَقَالُواْ هَـذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللّهِ وَمَا كَانَ لِلّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ{ (الأنعام: ١٣٦) وقال تعالى: } إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلاً !أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً {
(النساء: ١٥٠ / ١٥١)
رابعاً: إن الديمقراطية كمنهج حياة تعني, حرية الاعتقاد, وحرية الاختيار, وحرية التصرف, فكل فرد في ظل حاكمية الديمقراطية البغيضة, له أن يفعل ما شاء, فله أن يرتد عن دينه, وله أن يرتكب الفواحش والموبقات, ما دام في دين الديمقراطية الشركية, وهذا بلا شك ولا ريب, ردٌّ صريحٌ بيّنٌ لأحكام الله, التي ارتضاها وسنّها وأمر بها من فوق السبع الطباق, قال تعالى: }وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ { (المائدة: ٣٨)
وقال تعالى:} الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُواْ كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ

وَالْيَوْمِ الآخِرِ..{ (النور: ٢)

وقال صلى الله عليه وسلم: (من بدل دينه فاقتلوه) .

خامساً: إن الديمقراطية كأسلوب حكم تعني، أن الشعب هو المخول باختيار من يحكمه، حتى لو كان هذا المختار من قِبل الشعب، نصرانياً، أو يهودياً، أو لا دين له، وهذا ولا ريب، ردٌ صريحٌ لقوله تعالى: } وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً{ (النساء: ١٤١)

قال القاضي عياض: أجمع العلماء على أن الإمامة لا تنعقد لكافر، وعلى أنه لو طرأ عليه الكفر انعزل) .

وبهذا الذي ذكرناه يتبين، أن الديمقراطية دين لا يلتقي مع الإسلام بحال من الأحوال، وأن هذا الدين الجديد شركٌ صراحٌ، وكفرٌ بواحٌ، لا يمكن لمن يؤمن به ويعتقده على هيئته آنفة الذكر، أن يبقى في دين الله لحظة واحدة.

وبناءً على هذه المعاني أقول مستعيناً بالله: إن منهج الإخوان المسلمين في التغيير منهج فاسد، لا يمت إلى الإسلام بصلة، ويتناقض كل التناقض مع الهدي النبوي الشريف، في إقامة المجتمع المسلم، فالغايات في شرعنا الحنيف، لا تبرر الوسائل.

ولمزيد ايضاح أضع بين يدي القارئ الكريم بعضاً مما أفصحت عنه ألسنة مرشديها ومنظريها، ليكون على بينة من أمر هذه الجماعة، التي ضربت بعرض الحائط، كل المبادئ والثوابت والقطعيات التي لا تقبل المساومة لأجل الوصول إلى سدة الحكم.

قال المرشد العام للإخوان المسلمين في حديثه لمجلة العالم وقد سئل: (ما هي الفلسفة التي سيتعامل بها أبو النصر مع الشارع السياسي المصري..؟).

فأجاب بقوله: (الحق للجميع، الحرية للجميع، العدالة للجميع..).

تأمل كيف جمع هذا المرشد، الشعب المصري المتعدد الديانات، في بوتقة واحدة وساواه في كل شيء، فمن شاء من المصريين أن يكفر ويرتد عن دينه، فالقانون يكفل له ذلك، وتحميه ديمقراطية الإخوان..! ومن أراد أن يرتكب الفواحش فلا حرج عليه في ظل دين الديمقراطية، وهذا والله عين ما يريده أعداء هذا الدين، سلخ الأمة عن دينها، ورد أحكام هذا الدين، ونسخ قطعياته وثوابته، كقوله صلى الله عليه وسلم: (من بدل دينه فاقتلوه.) .

وقد سئل أيضاً: (البعض يتهم الإخوان بأنهم أعداء للديمقراطية، ويعادون التعدد الحزبي فما هي وجهة نظركم في هذا الاتهام..).

فأجاب: (الذي يقول ذلك لا يعرف الإخوان إنما يلقي التهم عليهم من بعيد، نحن مع الديمقراطية بكل أبعادها، وبمعناها الشامل والكامل، ولا نعترض على تعدد الأحزاب، فالشعب هو الذي يحكم على الأفكار والأشخاص..) .

انظر كلامنا السابق في حكم الله في هذه الديمقراطية البغيضة، لتدرك ما وصل إليه هذا النفر، الذي ارتضى حكم الشعب وساواه بحكم العلي القدير، بل قدمه على قول الله وقول رسوله صلى الله عليه وسلم، } أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ{(المائدة: ٥٠)

ويقول أيضا حين يُسئل في مجلة المصور: (هل تؤمنون بجدوى الديمقراطية الغربية.؟).

فيجيب: (نحن نؤمن بالحرية وهي مطلبنا، والديمقراطية أكثر النظم الوضعية تحقيقا للحرية، لذلك فنحن لا نعارضها..).

نعم هو لا يعارضها مع أنه يقر بأنها من صنع أهواء البشر..! ولعله لم يقرأ - وهو المرشد العام للإخوان المسلمين - قوله تعالى:}وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُمْ بِمَآ أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَآ أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ{ (المائدة: ٤٩)، ولعله لم يتناهى الى مسامعه قول الإمام الشوكاني رحمه الله فيمن يتحاكمون إلى أحكام الجاهلية المخالفة لحكم الله: (ولا شك ولا ريب أن هذا كفر بالله سبحانه وتعالى وشريعته التي أمر بها على لسان رسوله، واختارها لعباده في كتابه وعلى لسان رسوله، بل كفروا بجميع الشرائع من عند آدم عليه السلام إلى الآن، وهؤلاء جهادهم واجب، وقتالهم متعين حتى يقبلوا أحكام الإسلام، ويذعنوا لها، ويحكموا بينهم بالشريعة المطهرة، ويخرجوا من جميع ما هم فيه من الطواغيت الشيطانية.) .

فتأملوا يا شباب الإخوان قول مرشدكم الراحل ثم حاكموه الى الشرع حتى يستبين لكم الحق إن كنتم ممن يطلبه، فهو لا يعبر عن رأيه فقط بل يتكلم ويعبر عن منهجكم ومنهج جماعتكم التي تنتمون إليها.

وسئل: (في حال الوصول إلى الحكم من يتولى الأمر، أهم أهل الحل والعقد، أم مرشحون يأتون عبر الطريق البرلماني).

فأجاب: (نحن لا نسعى في طلب الحكم، ولكن لا نرفضها إذ استدعتنا الأمة لذلك، ولا شك أن أنجح الوسائل في هذا العصر النظام البرلماني الذي يعبر عن إرادة الأمة بصدق..) .

إذا كنتم لا تسعون في طلب الحكم ! فما المسوغ من بقائكم كجماعة.؟! ومتى ستستدعيكم الأمة لتحكموها يا ترى.!؟ ومن سيخلي بينكم وبينها لتحكموها هكذا بالمجان..؟! أو ما كان لكم عبرة في من سبق...!؟

أما مؤسس حركة المقاومة الإسلامية "حماس"، الشيخ أحمد ياسين -رحمه الله - فيقول وقد سئل: (الشعب الفلسطيني يريد دولة ديمقراطية، وأنت لماذا تعانده..؟).

فأجاب بقوله: وأنا أيضاً أريد دولة ديمقراطية متعددة الأحزاب، السلطة فيها لمن يفوز بالانتخابات..).

وسئل: لو فاز الحزب الشيوعي، فماذا سيكون موقفك..؟).

فأجاب بقوله: (حتى لو فاز الحزب الشيوعي فسأحترم رغبة الشعب الفلسطيني..).

غفر الله لك يا شيخ كيف تحترم رغبة من ينادي بأن لا إله والحياة مادة، أهذا هو دين محمد صلى الله عليه وسلم!؟ أهذا هو منهج الإسلام القائم على البراءة من الشرك وأهله!؟ أما كان لكم أسوة حسنة في ابراهيم والذين آمنوا معه: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ...} (الممتحنة: ٤) وأين أنتم أيها الإخوان من قوله تعالى: } وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً { (النساء: ١٤١) وقد أخذ فقهاء المسلمين من هذه الآية واستنبطوا منها أنه لا يجوز بيع العبد المسلم لكافر، حتى لا يكون للكافر سلطان على المسلم، فكيف يعقل أن نُسلم شعباً كاملاً لكافر يحكمه ويتسلط عليه.!؟

وسئل أيضاً: (إذا ما تبين من الانتخابات أن الشعب الفلسطيني يريد دولة ديمقراطية متعددة الأحزاب، فماذا سيكون موقفك حينئذٍ..؟).

فأجاب بقوله: (والله نحن شعب له كرامته، وله حقوقه، إذا ما أعرب الشعب الفلسطيني عن رفضه للدولة الإسلامية، فأنا أحترم وأقدس رغبته وإرادته..) .

تباً والله لمنهج يقدس ويحترم من يرفض الإسلام أوينبذه ويتبرأ منه، والله ليس لمن يرفض الإسلام عند من آمن بالله ورسوله وعرف معنى لا إله إلا الله إلا السيف والسيف وحده فقط.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وأيما طائفة ممتنعة انتسبت إلى الإسلام وامتنعت من بعض شرائعه الظاهرة المتواترة فإنه يجب جهادها باتفاق المسلمين، حتى يكون الدين كله لله كما قاتل أبو بكر الصديق وسائر الصحابة رضي الله عنهم مانعي الزكاة، وكان توقف في قتالهم بعض الصحابة ثم اتفقوا حتى قال عمر رضي الله عنه لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، كيف تقاتل المسلمين وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله محمد رسول الله فإن قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله. فقال أبو بكر: فإن الزكاة من حقها، والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونها لرسول الله لقاتلتهم على منعها، قال عمر: فما هو إلا أن رأيت أن شرح الله صدر أبي بكر للقتال فعلمت أنه الحق.) .

أما نجل مؤسس الإخوان المسلمين سيف الإسلام فيقول وقد سئل: (ما رأيكم وما موقفكم من حق تكوين الأحزاب لجميع الاتجاهات والانتماءات، ومن ضمنها الشيوعيين..).

فأجاب بقوله: (لها الحق، والإسلام لا يجبر الإنسان على الالتزام بعقيدة.. " لا إكراه في الدين"..).

وأضاف قائلاً: (وأنا أرى شخصياً في ظل مجتمع إسلامي، من حق الناس أن تعلن آراءها ومعتقداتها..) .

بمعنى آخر يريد هذا الرجل، أن يستعلن بمعصيته من يستعلن ! و يجاهر بكفره من يجاهر! ويكفر بالله من أراد أن يكفر ! فالوطن للجميع والدين لله..! فلا شروط عمرية تطبق، ولا أحكام أهل الكتاب تقام..!.

أما عصام العريان فيقول: (إن موقف الإسلام معروف من الشورى والتعددية فالقانون الأساسي لجماعة الإخوان، والذي ينظم العلاقة بين الجماعة يقر الشورى كما أقرها علماء الإخوان، بل ينظر الإخوان إلى الحكم الدستوري على أنه أقرب نظم الحكم إلى الإسلام، ولا يعدلون به نظاماً خاصاً كما تؤكد رسالة المؤتمر الخامس للشهيد حسن البنا.. وأضاف: لماذا نؤكد ونصر على أن الإسلاميين معادون للديمقراطية..؟ إن هذا افتراء عظيم، فنحن أول من ينادي بالديمقراطية، ويطبقها ويذود عنها حتى الموت..) .

تذود عنها حتى الموت أيها المسكين..؟! ياليتك ذودت عن أعراض المسلمات التي تنتهك صبح مساء.! بدل أن تذود عن عنوان محاربة الله في الأرض، ورمز مشاركة الله في أخص خصوصياته " الحاكمية ".

وإليك وإلى المخدوعين بمنهج الإخوان المسلمين، أبث لأسماعكم ما قاله الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله، في مستهل كلامه

على ما يجب على طالب العلم: ومنها أن يكون شديد التّوقي من محدثات الأمور وإن اتفق عليها الجمهور, فلا يغرّنه إطباق الخلق على ما أحدث بعد الصحابة رضي الله عنهم, وليكن حريصاً على التفتيش عن أحوال الصحابة وسيرتهم وأعمالهم.. واعلم تحقيقا أن أعلم أهل الزمان وأقربهم إلى الحق أشبههم بالصحابة وأعرفهم بطريق السلف, فمنهم أُخِذَ الـــدين... فلا ينبغي أن يكترث بمخالفة أهل العصر في موافقة أهل عصر رسول لله صلى الله عليه وسلم.) .

وبهذا القدر نكتفي, ونظن أنه قد تم المقصود, ولمن أراد المزيد فعليه بكتاب "الحصاد المر" لمؤلفه الشيخ المجاهد أيمن الظواهري - حفظه الله -, ففيه الكثير عن تخبطات هذه الجماعة, والله الهادي إلى سواء السبيل.

الإخوان المسلمون وديمقراطية الفشل.

لقد أثبتت التجارب والأحداث, والوقائع والأيام, أن الغرب النصراني الكافر, لم يرض ولن يسمح بحال من الأحوال, بوصول الإسلاميين إلى سدة الحكم, ما دام جوهر الإسلام فيهم نابضاً, وأن الإسلام المسموح بوصوله, هو الإسلام الممسوخ المشوه المتعلمن المجرد من حقائقه, وخير مثال على ذلك النموذج التركي المتهود الممسوخ.

وإن المتتبع لديمقراطية الإخوان, ليدرك كل الإدراك حقيقة ما ذهبنا إليه, فالتاريخ حافل بتلك النماذج الديمقراطية الفاشلة للإخوان, وما على طالب الحق سوى أن يقلب صفحات الذاكرة, ليرى العجب العجاب من التجارب الفاشلة, ولمزيد من الإيضاح أسوق لراغب الحق, بعضاً من تلك التجارب الفاشلة لما يسمى بالإسلاميين الديمقراطيين او المعتدلين أي المرضي عنهم أمريكياً.

أولاً: الجزائر: تعتبر التجربة الجزائرية من أوضح النماذج التي يمكن أن يقاس عليها الفشل الديمقراطي للإسلاميين, فبعد أن حققت الجبهة الإسلامية للإنقاذ - التي سلكت بدورها الخط الإخواني في العمل السياسي بدخولها كحزب سياسي ارتضى الديمقراطية طريقاً للسلطة- انتصارها الكاسح, في الدور الأول من الانتخابات, وبعد أن كانت قاب قوسين أو أدنى من سدة الحكم, فوجئ العالم - بترتيب نصراني ماكر - بنزول الجيش إلى الشوارع وإلغاء الانتخابات, واعتقال قادة الجبهة ورموزها وكوادرها, وزجهم في غياهب السجون الصحروية, كجزاء عاجل على فوزهم الكاسح بالانتخابات, لتنتهي بتلك الاعتقالات المهزلة الانتخابية, ويتربع الجيش من جديد على كرسي الحكم, فتأمل يا باغي الخير يرحمك الله هذا العرس الانتخابي المهيب.

ثانياً: فلسطين: حققت حركة المقاومة الإسلامية حماس, فوزاً كاسحاً في الانتخابات التشريعية الفلسطينية, ولكن ما الذي كان بعد ذلك..؟ لقد استنفرت شياطين الجن إخوانهم من شياطين الإنس, وسرعان ما ضرب العالم بأسره بأطواق حصاره الغاشم على الشعب الفلسطيني, كعقوبة ديمقراطية على اختياره ممثليه, محاولاً بذلك الحصار تركيع الشعب, وانتزاع الاعتراف الخمساوي, بدويلة الصهاينة المصطنعة, وما زالت فصول تلك المهزلة الديمقراطية, مستمرة حتى كتابة هذه الأسطر.

ثالثاً: تونس: كان للفوز الكاسح, الذي حققه حزب النهضة الإخواني, في الانتخابات التمهيدية, في أواخر الثمانينات, بداية النهاية لهذا التجمع الإسلامي, فقد تم حل الحزب ومطاردة زعمائه وكوادره, وتحولوا من قادة منتخبين ديمقراطياً من قِبل الشعب, إلى مجموعة مطاردين في بلاد المهجر, لا يلوون على شيء, سوى النجاة من بطش الطاغية زين العابدين بن علي.

رابعاً: تركيا: لقد أثبتت التجارب والأحداث, أن الجاهلية التركية لن تقبل بحال من الأحوال, وصول الإسلاميين إلى سدة الحكم, إلا إذا انسلخوا انسلاخاً تاماً عن دينهم, وبغير ذلك فإن مصير الإسلاميين هو السجن, والمطاردة والمحاكمة, والحرمان من ممارسة العمل السياسي.

فقد تمكن حزب السلامة الذي يتزعمه "نجم الدين أربكان" قبل عدة عقود, من الوصول إلى سدة الحكم, وعُين أربكان نائباً لرئيس الوزراء, وأمام تمدد الحركة الإسلامية, لم يجد العسكر المتهود أمامهم سوى الانقلاب العسكري, والإطاحة بالحكومة المنتخبة ديمقراطياً, والعودة بالبلاد إلى الحكم الديكتاتوري...

وما هي سوى بضعة أعوام على الانقلاب العسكري, حتى أعاد العسكر البلاد إلى مهزلة اللعبة السياسية, واستطاع حزب

"السلامة"، الذي غير اسمه إلى حزب "الفضيلة"، من حصد أغلبية الأصوات, وبالتالي شكل حكومة ائتلافية هيمن عليها, وعلى الرغم من التنازلات غير المعقولة، التي قدمها الحزب ليبقى متربعاً على عرش أنقرة، إلا أن أزلام الجاهلية التركية، لم يرق لهم الأمر, وكان الانقلاب السياسي, وكانت المحاكمة لأربكان وقادة حزبه, وتم حلّ الحزب الإسلامي وإبعاد أربكان عن السلطة, ومنعه من مزاولة العمل السياسي.

وكعادة عشاق الديمقراطية, فقد أعاد إسلاميو تركيا الكرة ثانيةً, ولكن هذه المرة تحت اسم حزب "الرفاه", الذي مني بهزيمة نكراء, وسرعان ما تم حظره وإبعاده.

وأخيراً شكل رجب طيب أردوغان حزبه الجديد، الذي عرف باسم "حزب العدالة للتنمية" على أسس علمانية إسلامية, وخاض الانتخابات البرلمانية, واكتسح الشارع التركي, وشكل حكومته على أسس علمانية، ممسوحة بزي إسلامي, لتتماشى مع مطالب الغرب النصراني, وتتوافق مع هوى العسكر المتهود الحاكم الفعلي للبلاد.

خامساً: اليمن: حقيقةً إن تجربة الإخوان المسلمين في اليمن, لهي تجربة مريرة تدمي القلب من كمد, فبعد أن كان الإخوان بقيادة الزنداني قاب قوسين أو أدنى من سدة الحكم, في تلك البلاد الطيب أهلها, غدت تلك الجماعة في ذيل القائمة.

نعم ! لقد كان بوسع مليون مسلح يمني, حاصروا القصر الجمهوري أن يجتثوا الطاغوت علي عبدالله صالح من جذوره, ولكن حكمة الزنداني أبت إلا أن تُمكن لطاغوت اليمن، من التسلط على رقاب المسلمين في تلك البلاد.

فقد فضَّت حكمة الزنداني الجمع المليوني، الذي طالب بأن تكون الشريعة هي المصدر الأساسي للتشريع، وتم تشكيل الحكومة, وغدا الزنداني الرجل الثاني في البلاد, واستطاع على عبد الله صالح بمكره، أن يستغل الإخوان في تحجيم دور الجنوبيين، بقيادة سالم البيض، وتم حصارهم سياسياً في البرلمان, ولم يجد البيض وأزلامه والحالة تلك, سوى الانفصال عن الشمال, الذي أعلن بدوره الحرب على الجنوب، من أجل المحافظة على الوحدة, وقدم شباب الإخوان في تلك الحرب الضروس الكثير الكثير، وسرعان ما اندحر الجنوبيين, وتم إلحاق الجنوب بشقيقه الشمال من جديد. وأجريت الانتخابات ثانية, وأوسدت الحقائب الخدماتية إلى رجال الإخوان, ومنعت الأموال من أن تصب في خزائن وزاراتهم, وما ذاك إلا لإظهار عجزهم أمام الناس, وعدم قدرتهم على تسيير شؤون وزاراتهم, والقيام بأعباء ما أوسد إليهم.. وبالفعل كان للماكر علي عبد الله صالح ما أراد, ورويداً رويداً تقلص حجم الإخوان، وانحصر دورهم بعد أن كانوا قاب قوسين أو أدنى من سدة الحكم.

والنماذج الديمقراطية الفاشلة يا باغي الخير كثيرة جداً, وما عليك سوى أن تتأمل بنظرة مجردة من الأهواء الحزبية - إذا كنت طالب حق- ثمرات الديمقراطية الشركية، على الإسلام والمسلمين لتدرك حقيقتها.

إن الحديث عن حزب التحرير, ومعتقداته وأفكاره ومبادئه, لهو حديث طويل, فلم يعد يخفى - ولله الحمد - على كل ذي بصيرة, تُرَّهات هذا الحزب وتخبطاته, التي لا تعقل, فمن قوله الإيمان تصديق جازم مطابق للواقع عن دليل مخالفاً بذلك عقيدة أهل السنة والجماعة, إلى إنكاره لعذاب القبر وخروج المسيح الدجال ونزول عيسى عليه السلام وظهور المهدي وذلك لتحريمهم الإيمان بكل ما لم يتبين من النبي صلى الله عليه وسلم من خلال الخبر الواحد حيث اشترط مؤسس هذا الحزب النبهاني الحد الأدنى للحديث المتواتر وجود خمسة رواة في كل طبقة من طبقات الإسناد وبغير ذلك فالحديث ليس قطعياً ولا يجوز الإيمان به , إلى تعطيلهم لفريضة الجهاد بقوله لا جهاد بدون خليفة وبحجة تخليه عن القيام بالأعمال المادية وتارة أخرى بعدم وجود الدولة, الى غير ذلك من تلك التخبطات, التي عُرف بها وعرفت به.

ولما أن كان المقصد من هذا البحث, هو إظهار عور ذاك المنهج غير السوي, الذي ارتضاه هذا الحزب كأسلوب تغيير, ووسيلة وصول إلى إقامة المجتمع المسلم, فقد اقتصرت على بيان أسلوب عمله في التغيير, ولمن أراد أن يستزيد فعليه بكتابات الشيخ أبي قتادة الفلسطيني وأبي بصير الشامي والدكتور صادق أمين وغيرهم من أهل العلم ففي كتاباتهم ما يبهج النفس ويشفي الغليل, والله الهادي إلى سواء السبيل.

حزب التحرير ومنهجه في التغيير

إن الناظر في أدبيات حزب التحرير وفي برنامجه ومنهجه الذي ارتضاه ورسم خطاه ليتم التغيير من خلاله ومن ثم إقامة المجتمع المسلم يتبين له أن أساسه هو تثقيف أفراده سياسياً دون النظر الى جوانب الإسلام الأخرى, ومن ثم حين يتشبعوا بأفكار الحزب ويصبحوا جزءاً من كتلة الحزب, ينطلقوا ليبشروا الأمة بهذه الأفكار لتتفاعل معها وتتخذها أفكاراً لها وتعمل بها حتى تصبح جزءاً من كيانها, ثم يتبع ذلك الوصول الى سدة الحكم إما عن طريق الأمة التي تشربت أفكار الحزب أو عن طريق طلب النُّصرة من رئيس دولة أو شيخ قبيلة أو أي تكتل آخر يملك القوة والاستطاعة بغض النظر عن ما هيته.

وقد أقر هذا الحزب واعترف بفشله في تحقيق ما كان يصبو إليه بسبب تجمد المجتمع حسب تعبيره من التفاعل مع دعوته وفكرته, مما ألجئه ذلك الى طلب النصرة من ذوي القدرة والشوكة والسلطان, وجعل طلب النصرة شرطاً واجب التحقق لإقامة المجتمع المسلم وبغير ذلك فلا سبيل - في نظر حزب التحرير - لقيام خلافة الله في الأرض وبهذا الطرح عطل حزب التحرير فريضتي الإعداد والجهاد المتعينتين في هذا الزمان.

ولا شك أن هذا النهج الذي ابتدعه حزب التحرير بهذه الصورة وهذه الكيفية هو نهج وسبيل مخالف للهدي النبوي الكريم وللسنن الكونية في إقامة المجتمعات وبناء الأمم, وهو سبيل لا يمكن الوصول من خلاله الى الهدف المنشود ليس فقط لأنه مخالف لما سبق ذكره بل لأن الواقع العملي والحي المعاش يمنع من تحقيق ذلك وقد أقر بذلك بقوله: ولما تجمد المجتمع أمام الحزب من جراء فَقْد الأمة ثقتها بقادتها وزعمائها الذين كانوا موضع أملها ومن جراء الظروف الصعبة التي وضعت فيها المنطقة لتمرير المخططات التآمرية, ومن جراء التسلط والقهر الذي يمارسه الحكام ضد شعوبهم ومن جراء شدة الأذى الذي يوقعه الحكام بالحزب وشبابه, لما تجمد من جراء كل ذلك قام الحزب بطلب النُّصرة من القادرين عليها.

وطلب النصرة عند الحزب أمرٌ ليس مستحدث فقد أكد عليه مؤسسه في كتابه التكتل الحزبي بقوله: المرحلة الثالثة هي مرحلة الوصول الى الحكم: إن الحزب يصل الى الحكم عن طريق الأمة وأعمال طلب النُّصرة.

وحتى تتضح الصورة وتكون يا أخا الإسلام, على بينة من أمر هذا الحزب, وتتيقن فساد منهجه وأسلوب عمله, أسوق إليك بعضاً من أوجه بطلان بدعته - بدعة طلب النصرة بالشروط التي وضعها- التي يتشدق بها صبح مساء, والله الهادي إلى سواء السبيل.

أولاً: إن من الأمور المُسَلَّم بها عند كل مسلم, أن الإسلام كدين كامل متكامل لم يترك لنا شاردةً ولا واردةً, ولا صغيرةً ولا كبيرةً, إلا أرشدنا إليها وبيَّن حكمه فيها, حتى كيف يقضي المسلم حاجته, فإذا تبين لك ذلك, فكيف يغفل الشارع إذن عن أمر عظيم كهذا - أي أمر الخلافة - هذا الأمر الجلل, الذي يتوقف عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر, وإقامة الحدود, وتطبيق الشرع المحكم إلى غير ذلك من مصالح معلومة للقاصي والداني, وهو الذي أفصح وبصورة جلية أن ستكون نبوة ثم خلافة ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها... الحديث.

فلو كان طلب النصرة محصوراً فقط, في الطريقة التي تبناها الحزب -كما يزعم- شرطاً واجب التحقق لقيام خلافة الله في الأرض, لكان هناك ولو نصاً واحداً يدل على ذلك من الكتاب أو السنة, ولذكره العلماء فيما ذكروه, والله المستعان.

ثانياً: إن ما جاء به هذا الحزب, لهو أمرٌ لم يسبقه به أحدٌ من السلف, ولم يقل به أحدٌ من العلماء, فهو إذن أمر مردود على أصحابه, خاصةً إذا علمنا أن أمر الخلافة عرضة للزوال والسقوط, فكيف يغفل عن هذا الأمر جهابذة الدين من العلماء الربانيين, ولا يدونوه بأسفارهم ولو بإشارة موجزة, وفعل النبي الكريم عليه الصلاة والسلام له إنما هو لمقتضى الحال في ذلك الزمان حيث الواقع المعاش والبيئة العربية البدوية والقبلية تسمح بذلك أما واقع حالنا الآن وقد تسلط الطواغيت على

العباد والبلاد فلا يسمح بحال من الأحوال بتحقق ذلك بل دون ذلك لمن أراده خرط القتاد وامتطاء الكواكب.
ثالثاً: إن الطريقة التي اتبعها النبي الكريم صلى الله عليه وسلم في طلب النصرة, من ذوي الشوكة والسلطان, لم يثبت أن أمر بها الصحابة الكرام, ولم يرد عن الصحابة أن شاركوه هذا السعي, فلو كان الأمر واجباً - كما يزعم حزب التحرير - لأمر صحابته الكرام أن يشاركوه هذا الجهد, كمشاركتهم إياه الجهاد في سبيل الله, الذي عطلته عقول منظري حزب التحرير.
رابعاً: إن ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم من طلب النصرة من قبائل العرب, إنما كان في الفترة المكية - أي في مرحلة الاستضعاف - قبل أن يُمكَّن له في المدينة, فلا يجوز بحال من الأحوال أن نعود للوراء, ونجعل طلب النصرة شرطاً واجب التحقق لإقامة المجتمع المسلم, وبذلك نعطل فريضتي الهجرة و الجهاد, التي اكتمل الدين بهما وببيان أحكامهما وسن تشريعاتهما.
خامساً: إن الفترة التي طلب فيها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم النصرة, لم تتجاوز كما ثبت السنتين, أما حزب التحرير فما زال مذ ما يزيد عن أربعة وخمسين سنة يطلب النصرة, ويستجديها وبلا جدوى.. وياليت شعري متى سيحوزها من ذوي الشوكة والسلطان, خاصةً إذا علمنا أن أصحاب الشوكة والسلطان, إما مرتدين أو عملاء لأهل الردة, أو خائفين وجلين لا يملكون من أمرهم شيئاً.
سادساً: من المعلوم أن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم, كان يطلب النصرة والمؤازرة والتأييد من المشركين وقبائلهم, بعد أن يعرض عليهم الإسلام, أما حزب التحرير فينتظر النصرة أن تأتيه من أبناء الإسلام, ليسوده عرش الخلافة الراشدة.
فتأمل يا أخا التوحيد هذا التناقض الجلي, بين ما يدَّعونه من اقتفائهم لأثر النبي الكريم صلى الله عليه وسلم في إقامة المجتمع المسلم, ومخالفتهم له بمن يقصدونه في طلب النصرة.
سابعاً: إن هذه الطريقة - أي طلب النصرة من ذوي الشوكة والسلطان وجعلها أمراً واجب التنفيذ لإقامة المجتمع المسلم - معناها تعطيل الجهاد المتعين الماضي إلى قيام الساعة, كما صحت الأحاديث بذلك, وتعطيل أحكامه, ونسخ آياته البينات التي تأمر بالقتال, والتي استقر عليها الإسلام, كقوله تعالى: (كتب عليكم القتال..), وقوله: (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) وقوله: (قاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة..) , هذه الآيات وغيرها من الآيات المدنية المحكمة, لا ينبغي بحال من الأحوال غض الطرف عنها, وتعطيلها لتتوافق وأهواء صنَّاع النظريات المبتدعة في الدين.
ثامناً: لقد قامت بفضل الله أسواق متعددة وساحات متنوعة للجهاد في سبيل الله في أفغانستان والشيشان والبوسنة والعراق وحتى في فلسطين مركز الحزب فلم نرى لهم أي جهد يذكر في هذه الساحات, فلو كانوا صادقين حتى في طلب النصرة التي يزعمونها ويتشدقون بذكرها لطلبوها وقصدوها في هذه الساحات التي هي مضنة النصرة والتمكين, لكنها الدعة والراحة التي ترتكس بصاحبها الى التيه والضياع.
تاسعاً: لقد حدد حزب التحرير مدة زمنية لا تتجاوز الثلاثة عشر عاماً, لإقامة خلافته الموعودة, تأسياً بالفترة المكية التي سبقت حصول النصرة للنبي صلى الله عليه وسلم, وانقضت المدة التي حددها الحزب دون أن يحصل على مراده, ثم مدد المدة الزمنية مرة أخرى, وانقضت دون أن يحقق مراده المرجو, وهكذا مضى أربعة وخمسون عاماً وما زال الحزب في فترته المكية ينتظر النصرة.. فتأمل يرعاك الله هذا التخبط غير المحسوب.
عاشراً: إن النصرة التي يُمني حزب التحرير بها نفسه - لو سلمنا جدلاً إمكانية تحققها - تحتاج الى رجال أشداء وأنفس أبية وأرواح زكية وقلوب حية تسترخص الغالي والنفيس, ولا شك أن هذه النماذج تكاد تكون معدومة في زماننا الحاضر بفعل سياسة التدجين والتذليل التي اتبعها الطواغيت, وكلما طال أمد التسلط الطاغوتي على الأمة ازدادت الأمة قهراً وبُعداً عن هذه المعاني وتلك الصفات التي تتطلبها تلك النُّصرة, وهذا الذي ذكرنا قلما تجده في آحاد الناس فكيف تجده في تلك الكتل التي يحتاجها حزب التحرير ليقيم خلافته بها.؟!
وفصل الخطاب فيما سبق ذكره وبيانه, أن النصرة التي يسعى إليها حزب التحرير ويرجوها, إنما هي وهم وسراب خادع, وما هذه النصرة المزعومة سوى مطية امتطاها حزب التحرير, ليعطل بها فريضة الجهاد المتعينة- سواء قصد ذلك أم لم يقصد - وليلحق بهذا النهج المبتدع بأسلافه الروافض الشيعة, والقاديانية الملحدة, الذين عطلوا الجهاد, وما ذاك إلا لأهواء خالطت عقولهم, واستحسنتها قلوبهم فبئس ما صنعوا.
وليتضح المقصود أورد لك أيها القارئ الكريم, بعضاً مما أفصحت عنه ألسنتهم, وسطرته أناملهم لتعلم حقيقتهم, وتدرك خبايا مناهجهم الضالة, المخالفة لمنهج الحق الذي نزل على سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم.
يقول الحزب في كتابه منهج حزب التحرير في التغيير بعد أن قصر الإسلام على العمل السياسي ونحَّى ما سواه من أبجديات

هذا الدين ومن ذلك الجهاد في سبيل الله: إن التكتلات التي تقوم لأعمال غير سياسة لا يكون لها أية علاقة بقضية الإسلام المصيرية ولا يمكن أن تحقق الغاية التي يجب على المسلمين أن يعملوا لتحقيقها، والتي هي إقامة الخلافة وإعادة الحكم بما أنزل الله وذلك كالتكتلات التالية:

١- التكتلات التي تقوم للأعمال الخيرية كبناء المدارس والمستشفيات ومساعدة الفقراء والأيتام والمحتاجين...الخ

٢- التكتلات التي تقوم للدعوة الى العبادات والالتزام بالسنن.

٣- الجمعيات والتكتلات التي تقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٤- الجمعيات والتكتلات التي تقوم على الدعوة الى الأخلاق الفاضلة لإصلاح المجتمع.

ويقول: حزب التحرير هو تكتل سياسي يقوم على الفكرة الإسلامية، وليس هو تكتلاً روحياً كهنوتياً، ولا تكتلاً علمياً، ولا تعليمياً، ولا تكتلاً للأعمال الخيرية.

وبهذا الطرح الذي لم ينزل الله به من سلطان يكون الحزب قد أفرغ الإسلام من كل مكوناته ومحتوياته بحجة أنها لا تؤدي به الى السلطة ولا تأخذ بيده لسدة الحكم، ولم يبق من الإسلام في نظره سوى "الجانب السياسي" على حد تعبيره ليتبناه حيث أن هذا الجانب على حد زعمه سيُسَوِّده كرسي الخلافة، وجهل هذا الحزب أن الإسلام كلٌ متكامل لا يقبل التجزؤ والتبعيض فهو منهج وعقيدة وأخلاق ومعاملات وعبادات وسلوك وسياسة شرعية وجهاد في سبيل الله, لا يمكن بحال من الأحوال الاستغناء أو إيثار أحدهما على الآخر، بل هذا الدين كلٌ متكامل يكمل بعضه بعضاً ويصدق بعضه بعضاً ولله الحمد والمنة.

ويقول الحزب: عمل الحزب كله عمل سياسي وليس عمله عملاً تعليمياً، فهو ليس مدرسة، كما أن عمله ليس وعظاً وإرشاداً، بل هو عمل سياسي تعطى فيه أفكار الإسلام وأحكامه ومعالجاته للعمل بها.

ويقول أيضاً: وحزب التحرير هو تكتل سياسي, وليس تكتلاً روحياً، ولا تكتلاً علمياً، ولا تعليمياً، ولا تكتلاً خيرياً..

وله أيضاً: فعمل الحزب كله عمل سياسي، سواء كان خارج الحكم أم كان في الحكم، وليس عمله تعليمياً فهو ليس مدرسة، كما أن عمله ليس وعظاً وإرشاداً بل عمله سياسي تعطى فيه أفكار الإسلام وأحكامه ليعمل بها.

وإذا كنت لا ترغب أن يكون أفرادك من المفتين, ولا من العلماء, ولا من الوعّاظ، ولا من المعلمين..! فما هم إذن..؟! مجموعةٌ من قطاع الطرق, والجهلة، واللصوص، والمفسدين في الأرض..! أبهؤلاء ستحكم الأمة, وتقيم حكم الله, وتشيد المجتمع المسلم..؟!.

ويقول الحزب:- إن حزب التحرير هو حزب إسلامي من حيث مبدئه، ليس حزباً إسلامياً كالتكتّلات الإسلامية، فهو لا يُعلّم الناس الإسلام ولا يدعو المسلمين للإسلام، ولا يعظ الناس بالإسلام، فالإسلام مبدؤه وليس عمله، والإسلام أساسه وليس صفته.

ويقول: ولذلك يجب أن الكتلة التي تحمل الدعوة الإسلامية كتلة سياسية ولا يجوز أن تكون كتلة روحية ولا كتلة خُلقية ولا كتلة علمية ولا كتلة تعليمية ولا شيئاً من ذلك, بل يجب ان تكون كتلة سياسية، ومن هنا كان حزب التحرير - وهو حزب اسلامي - حزباً سياسياً يشتغل بالسياسة.

إذا كنت أيها الحزب لا تُعلّم الناس الإسلام, ولا تدعو إلى دين الله، ولا تأمر بمعروف ولا تنهى عن منكر، ولا تزكي أفرادك والمسلمين، ولا تدعو لفضائل الأخلاق وتربي الناس عليها، فحريٌّ بك أن تقول أنك حزب علماني..! وإذا كان العمل لدين الله ليس من شأنك، وليس من خصوصياتك، والإسلام ليس من صفتك، فما حظ الإسلام منك, وما حظك من الإسلام..!؟.

قال صلى الله عليه وسلم: (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده, فإن لم يستطع فبلسانه, فإن لم يستطع فبقلبه, وذلك أضعف الإيمان..) .

قال الإمام الجصاص: لما ثبت بما قدمنا ذكره من القرآن، والآثار الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم وجوب فرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبينا أنه فرض على الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين، وجب أن لا يختلف في لزوم فرضه البر والفاجر، لأن ترك الإنسان لبعض الفروض لا يسقط عنه فروضا غيره، ألا ترى أن تركه للصلاة لا يسقط عنه فرض الصوم وسائر العبادات، فكذلك من لم يفعل سائر المعروف ولم ينته عن سائر المناكير، فإن فرض الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر غير ساقط عنه.) .

ويقول الحزب: ومع أن الحزب التزم في سيره أن يكون صريحاً وسافراً ومتحدياً، إلا أنه اقتصر على الأعمال السياسية في ذلك ولم يتجاوزها الى الأعمال المادية ضد الحكام، أو ضد من يقفون أمام دعوته، أو ضد من يناله منهم أذى، اقتداءً برسول الله

صلى الله عليه وسلم من اقتصاره في مكة على الدعوة، ولم يقم بأية أعمال مادية حتى هاجر الى المدينة.
ويقول في موطن آخر: وعلى المسلمين أن يُكَونوا إسلاماً في أعمالهم وتصرفاتهم فللإسلام طريقة خاصة في تحقيق الأهداف والغايات ومنها حمل الدعوة لاستئناف الحياة الإسلامية بإعادة دولة الخلافة والالتزام بهذه الطريقة التي تعتمد الصراع الفكري والكفاح السياسي, وتستبعد الأعمال المادية، هو التزام بالطريقة الشرعية التي طلبها الإسلام وليس خوفاً أو هرباً، من الوصف بالإرهاب.
ويقول أيضاً: لا شأن للكتلة الإسلامية - أي الحزب - التي تحمل الدعوة بالنواحي العملية، ولا تشتغل بشيء غير الدعوة، وتعتبر القيام بأي عمل من الأعمال الأخرى ملهياً ومخدراً ومعوقاً عن الدعوة، ولا يجوز الاشتغال بها مطلقاً.
ويقول: ولهذا لا يجوز للكتلة وهي تحمل الدعوة، أن تقوم ككتلة بأي عمل من الأعمال الأخرى, ويجب أن تقتصر على الفكر والدعوة.
فالحزب كما يظهر من أدبياته لا يرى الجهاد "الأعمال المادية" ولا يدعو إليه ولا يسمح به، بل هو ليس من شأنه فهو حزب سياسي يدعو الى السياسة ويجاهد بالسياسة، عمله الكفاح السياسي والصراع الفكري بل يرى الجهاد معيقاً له ومخدراً وملهياً عن الهدف الأسمى الذي سيغير به المجتمعات ويشيد به الخلافة وهو العمل السياسي، بل يرى هذه الطريقة التي يتبناها هي الطريقة الشرعية التي أمر بها الإسلام فلا يجوز تجاوزها بحال من الأحوال، وبالتالي فالجهاد لتغيير الأوضاع القائمة عنده أمرٌ مبتدع والعمل به مخالف للهدي النبوي الكريم.
وهذا والله عين ما يريده أعداء الملة والدين من أبناء المسلمين، أن يسقطوا الجهاد المتعين من قاموس أبجدياتهم، حتى يسوقوهم إلى مسالخ الموت، كما تساق البهائم, ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.
قال ابن دقيق العيد: (القياس يقتضي أن يكون الجهاد أفضل الأعمال التي هي وسائل، لأن الجهاد وسيلة إلى إعلان الدين ونشره وإخماد الكفر ودحضه ففضيلته بحسب فضيلة ذلك والله أعلم.) .
وقال ابن جرير الطبري في تفسير قوله تعالى: } وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ {: (فقاتلوهم حتى لا يكون شرك ولا يعبد إلا الله وحده لا شريك له، فيرتفع البلاء عن عباد الله من الأرض وهو الفتنة ويكون الدين كله لله وحتى تكون الطاعة والعبادة كلها لله خالصة دون غيره.)
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: وقوله تعالى: " إن لا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم"، قد يكون العذاب من عنده وقد يكون بأيدي العباد, فإذا ترك الناس الجهاد في سبيل الله، فقد يبتليهم بأن يوقع بينهم العداوة حتى تقع بينهم الفتنة، كما هو الواقع، فإن الناس إذا اشتغلوا بالجهاد في سبيل الله، جمع الله قلوبهم وألف بينهم وجعل بأسهم على عدو الله وعدوهم, وإذا لم ينفروا في سبيل الله عذبهم الله بأن يلبسهم شيعا، ويذيق بعضهم بأس بعض, وكذلك قوله: "ولنذيقهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون", يدخل في العذاب الأدنى ما يكون بأيدي العباد كما قد فسر بوقعة بدر بعض ما وعد الله به المشركين من العذاب) .
وقال أيضاً رحمه الله: هذا أيضا خطاب لكل قرن وقد أخبر فيه أنه من نكل عن الجهاد المأمور به عذبه واستبدل به من يقوم بالجهاد وهذا هو الواقع.) .
وقال رحمه الله: إن قوام الدين بالكتاب الهادي والحديد الناصر كما ذكره الله تعالى. فعلى كل أحد الاجتهاد في اتفاق القرآن والحديد لله تعالى ولطلب ما عنده مستعينا بالله في ذلك)
وقال ابن القيم رحمه الله: قال تعالى لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط. فهذا الهدى ثم قال وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد فهذا النصر فذكر الكتاب الهادي والحديد الناصر).
فهل آن الأوان لحزب التحرير أن يعود الى رشده ويلتمس الطريق القويم ويهتدي به ليصل الى ما يرجو إن كان جاداً.
ويقول أحد دعاتهم البارزين: دخلت على الشيخ تقي الدين النبهاني، فاقترحت عليه أن يُدخل القرآن الكريم، في منهاج الدراسة في حلقات الحزب, فقال: اسمع يا أمين, لا تتلف لي شباب الحزب, أنا لا أريد دراويش..
إذا كان حافظ كتاب الله درويش لا يفقه شيئاً..! أو أصبح من يُعلم كتاب ربه غبياً لا يعي شيئاً.. فمن هو إذاً بنظركم العالم، وعلى أكتاف من ستقوم دولتكم المزعومة !؟ أوما علمتم أن العلم كل العلم في هذا الكتاب الكريم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من عزيز حكيم، أوما ترامى إلى مسامعكم قوله تعالى: } مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ {. ولكنه التخبط والى الله المشتكى.
ورحم الله الأستاذ المودودي إذ يقول فيهم: (لا تجادلوهم، دعوهم للأيام يموتوا..) .

ولا أجد أن أختم به الحديث عن هذا الحزب, إلا أن أردد مع الأستاذ الشهيد سيد قطب -رحمه الله- ما قاله بعد فراغه من مقابلة مؤسسه النبهاني: (دعوهم فسينتهون من حيث بدأ الإخوان) .

السلفية الإصلاحية

ظهر نشاط هذا التيار السلفي بقوة في أواخر القرن المنصرم, وسرعان ما ازداد نشاطه بشكل ملحوظ, عقب أحداث يوم الثلاثاء المبارك, وذلك من خلال مبادراته المثبطة, ونظرياته المرجفة, وأطروحاته التي تقطر تخذيلاً وتثبيطاً عن الجهاد ونصرة المجاهدين.

وقد تبنى هذا التيار الإصلاحي منهجاً وأسلوباً سلمياً للتغيير, وذلك عن طريق إنشاء المؤسسات المدنية, وتشييد المنابر الإعلامية, والتغلغل رويداً رويداً في مؤسسات المجتمع المدني الثقافية منها والاجتماعية, والتحاور مع رموز الأنظمة القائمة, وإقناعها بضرورة التغيير والإصلاح الداخلي.

ولما أن كانت بلاد الحرمين بما تملك من إمكانيات هائلة, محط أنظار طلاب العلم, وقبلة المسلمين, فقد غدا منظرو هذا التيار الإصلاحي, وعلى رأسهم الدكتور سفر الحوالي والدكتور سلمان العودة, من أبرز منظري وموجهي هذا التيار, سواء في الجزيرة العربية رائدة هذا التيار, أو العالم الإسلامي المترامي الأطراف.

ولتتضح الصورة في الأذهان ويكون قارئ هذه الورقات, على بينة من أمر هذا التيار الإصلاحي, وحقيقته الانهزامية أسوق له - وذلك قبل الشروع ببيان عور منهجه وأسلوب عمله في التغيير - بعضاً من طوامه الكبرى, التي لم تعد تخفى على المبتدئ من طلاب العلم, فضلاً عن العالم المتبصر بدين الله.

فقد ظهرت طوام هذا التيار الانهزامي, بصورة جلية بينة, في ردِّهم البائس على خطاب المثقفين من أبناء الصليب الأمريكي, الذي حمل عنوان: " على أي أساس نقاتل", ومع أن الشيخ ناصر الفهد - فك الله أسره - قد كفى المسلمين الرد على تُرَّهات هذا البيان الانهزامي السلمي التعايشي, إلا أنني وللفائدة أسوق لباغي الخير طامتين من طوام هذا البيان, ليدرك حقيقة هذا التيار الانبطاحي.

أولاً: مشاركة موقعي هذا البيان أعداء الملة والدين, مشاعرهم وأحاسيسهم ومواساتهم, وإظهار التسخط والجزع لما حلّ بديارهم الآثمة من تدمير, وإظهار أمة التوحيد بمظهر الجازع وغير الراضي عن هذا العمل المبارك, الذي أحال أبراج محاربة الله ورسوله في الأرض ناراً ولظى.

فقد جاء في البيان الذي وقع عليه أبرز منظري السلفية الإصلاحية/ الدكتور سفر الحوالي والدكتور سلمان العودة ما نصه:- إن كثيرين في العالم الإسلامي وغيره لم تكن هذه الهجمات في سبتمبر محل ترحيب وحفاوة عندهم, لجملة من الأسباب القيمية والمبدئية والمصلحية والأخلاقية, التي تعلمناها من الإسلام.. وأضاف موقعو البيان: ولئن كان الغرب يعتبر أحداث الحادي عشر من سبتمبر تتجه لزعزعة الأمن المدني في الغرب, فمن الممكن أن نشاركه الشعور وحتى الموقف في رفض ضرب الأمن المدني في العالم.اهـ

ثانياً: براءتهم من المجاهدين وغمزهم ولمزهم وتأييدهم ومناصرتهم أبناء الصليب الأمريكي, والوقوف بصفهم سِلماً لهم, وحرباً على المجاهدين في سبيل الله, وإظهار المجاهدين بمظهر الجناة الظالمين, وأن لا أخلاق عندهم ولا قيم, ولا مناص من استئصال شوكتهم والقضاء عليهم, وهذا والله مناف لأبسط قواعد الولاء والبراء في هذا الدين, ومخالف لعقيدة أهل التوحيد القائمة على الكفر بالطاغوت والتبرؤ منه, زد على ذلك إقرارهم الضمني بحق "اسرائيل" في العيش بسلام في الأرض المقدسة.

يقول موقعي هذا البيان:- وإذا كان الهدف استئصال الإرهاب من جذوره, فإن الوسيلة الملائمة ليس الحرب الشاملة بل السلام العادل, وهذا ما يبحث عنه العالم في فلسطين وغير فلسطين, إن الإرهاب بالمعنى الاصطلاحي الشائع اليوم, إنما هو صورة واحدة من صور الاعتداء الظالم على الأنفس والممتلكات, وإنه لمن العمى الأخلاقي أن يركز على صورة واحدة من صور الاعتداء الظالم, ويغض الطرف عن صورها الأخرى, وجاء أيضاً: المسؤولية في الجنايات الخاصة فردية, فلا أحد يؤخذ بجريرة غيره, قال الله تعالى: }وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى{ , لدينا قناعة راسخة أن على أهل العلم والفكر أن يتمتعوا برؤية بعيدة وعميقة, لا

تسمح لهم بالجري وراء خيارات يصنعها أفراد, أو دوائر واقعة تحت ضغط واقع لا يراعي الأخلاق ولا الحقوق, وقد تقود المجتمعات إلى دوامة القلق والحرمان والصراع اللاإنساني.. وحين نحرم الناس من الاستقرار ونفرض عليهم أن يعيشوا في دوامة من القلق والقهر والضيم فإنهم قد يتصرفون بطريقة غير أخلاقية.. وأضافوا: مشكلة الإرهاب والتطرف ومن وجهة نظرنا فإن هذه مشكلة جادة في العالم, ويفترض أن تكون هنالك مشاريع متعددة لمعالجتها... وزادوا غير مأجورين: إننا معنيون بالحملة على الإرهاب سواء أتى من مسلمين أو غير مسلمين..اهـ

وأنا أقول لكم بعد هذا وذاك: اتقوا الله يا قوم وعودوا الى رشدكم قبل فوات الآوان, وكفوا ألسنتكم عن الطعن بأعراض المجاهدين فهذا الطريق الذي سلكتموه طريق لا يأتي بخير أبداً, بل هو الضلال بعينه ويكفي أن تعرفوا ضلاله من رميكم المجاهدين بما علمتموه, يقول ابن حزم رحمه الله: ولا إثم بعد الكفر أعظم من إثم من نهى عن جهاد الكفار وأمر بإسلام حريم المسلمين إليهم.

وهذه دعوة الى تلك القواعد الإصلاحية التي جعلت من هؤلاء الدعاة الإصلاحيين قدوة لهم وأُسوة أن يتركوا ما هم عليه من التخبط ويلحقوا بركب الحق الذي لا مرية فيه رغم مكابرة المكابرين ومعاندة المعاندين, وليتأملوا قول الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله فإن فيه أصل الدين وطريق النجاة: (فالله الله يا إخواني تمسكوا بأصل دينكم, وأوله وآخره وأسه ورأسه, شهادة أن لا إله إلا الله, واعرفوا معناها, وأحبوها وأحبوا أهلها واجعلوهم إخوانكم ولو كانوا بعيدين, واكفروا بالطواغيت وعادوهم وابغضوهم, وابغضوا من أحبهم أو جادل عنهم أو لم يكفرهم أو قال: ما علي منهم, أو قال: ما كلفني الله بهم, فقد كذب هذا على الله وافترى, فقد كلفه الله بهم وافترض عليه الكفر بهم والبراءة منهم ولو كانوا إخوانهم وأولادهم فالله الله تمسكوا بذلك لعلكم تلقون ربكم لا تشركون به شيئاً, اللهم توفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين.) .

السلفية الإصلاحية ومنهجها في التغيير

إن المتأمل في مسار المشروع السلفي الإصلاحي, وأسلوب عمله ومنهجه في التغيير, ليدرك كل الإدراك هشاشة هذا النهج السلمي الانهزامي, الذي ابتدعه منظروه ليكون بديلاً لفريضة الجهاد التي فرضها رب العزة, وجعلها باباً من أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر, وطريقاً بيِّناً لإقامة شرع الله في الأرض, كما قال تعالى: (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله..) فقد تمثل هذا المنهج المعد لإقصاء فريضة الجهاد بما يلي:

أولاً: إنشاء المؤسسات المدنية, والعمل من خلالها من أجل أسلمت المجتمع العام.

ثانياً: إنشاء المنابر الإعلامية للتعبير عن مشروعها الإصلاحي ونشر فكرها ومخاطبة الرأي العام.

ثالثاً: تشييد المدارس التعليمية, والمراكز الثقافية والاجتماعية, للتواصل مع كافة طبقات المجتمع, والتغلغل في نواحي الحياة المختلفة بقصد التغيير من الداخل بالطرق السلمية والموعظة الحسنة.

رابعاً: عقد المؤتمرات والندوات العامة للتعبير عن آرائهم في القضايا المختلفة التي تهم المجتمع العام إلى غير ذلك من الأباطيل التي اكتفوا بها, لتكون حمىً وحصناً منيعاً لهم, من تبعات هذا الدين العظيم, وفي الوقت نفسه نسخاً لفريضة الجهاد المتعينة, وطمساً لمعالمه وأحكامه.

وحتى تكون يا أخا العقيدة والدين على بينة من عور هذا المنهج, وأنه في أُسه وأساسه مصادم ومخالف لمنهج الأنبياء والرسل, وللسنن الكونية الإلهية, ولدحضه وبيان فساده, أضع بين يديك بعضاً من أوجه بطلانه.

أولاً: إن هذا النهج الجديد الذي تتبناه السلفية الإصلاحية, يستلزم وبكل وضوح لا لبس فيه, رضا القائمين عليه, والحاملين لأطروحاته ونظرياته, بحكم الطاغوت وعدم البراءة منه, والدخول تحت عباءته, والعمل تحت مظلته, والانخراط في مؤسساته, وهذا وبلا شك منافٍ لأبسط قواعد الولاء والبراء, ومخالف لعقيدة أهل التوحيد, القائمة على الكفر بالطاغوت والتبرؤ منه.

قال تعالى: }لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ {(البقرة:٢٥٦)

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى: ومعنى الكفر بالطاغوت: أن تبرأ من كل ما يُعتقد فيه غير الله, من جني أو أنسي أو شجر أو حجر أو غير ذلك, وتشهد عليه بالكفر والضلال, وتبغضه ولو كان أباك أو أخاك.

فأما من قال أنا لا أعبد إلا الله, وأنا لا أتعرض للسادة والقباب على القبور, وأمثال ذلك, فهذا كاذب في قول لا إله إلا الله, ولم يؤمن بالله ولم يكفر بالطاغوت) .

ثانياً: إن هذا المنهج السلفي الإصلاحي يعني وبكل وضوح, تعطيل فريضة الجهاد في سبيل الله, واستبدال هذه الفريضة المتعينة على كل مسلم بالجهاد السلمي, المتمثل بإنشاء المؤسسات المدنية, والمنابر الإعلامية الدعوية, والعمل من خلالها

والاقتصار عليها, وهذا وبلا شك نسخ لفريضة الجهاد المتعينة, الواجبة المتحتمة في ظل غياب شريعة الله عن واقع الحياة, وتسلط أحلاف الصليب وزمر الإلحاد وصناديد الردة على رقاب العباد والى الله الشكوى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: فأيما طائفة امتنعت عن بعض الصلوات المفروضات أو الصيام أو الحج, أو التزام تحريم الدماء والأموال والخمر والزنا, أو عن نكاح ذوات المحارم, أو عن التزام جهاد الكفار, أو ضرب الجزية على أهل الكتاب, وغير ذلك من موجبات الدين ومحرماته, التي لا عذر لأحد في جحودها وتركها, التي يكفر الجاحد لوجوبها فإن الطائفة الممتنعة تقاتل عليها وإن كانت مقرّة بها) .

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله عن الحاكم: أنه ينعزل بالكفر إجماعا, فمن قوي على ذلك فله الثواب, ومن داهن فعليه الإثم, ومن عجز وجبت عليه الهجرة من تلك الأرض) .

ثالثاً: لقد بيَّن الله - جل جلاله - في مواطن عديدة من كتابه الكريم, سبيل التغيير للمؤمنين, وأرشدهم إليه ليسلكوا طريقه ويتخذوه مسلكاً لإقامة دين الله في الأرض, ومما قاله جل وعلا في هذا الشأن: }وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ للّهِ فَإِنِ انْتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ { وقال جل جلاله:} فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ{ (التوبة: ١٢)

فالقتال هو الطريق المفضي إلى إقامة حكم الله في الأرض, وإلى تعبيد الناس لربهم, وإسقاط تلك الهامات المتألهة التي سلبت حق التشريع من الله واتخذته لنفسها, وليس كما تزعم السلفية الإصلاحية, أن التغيير محصور في إنشاء المؤسسات المدنية, والعمل من خلالها لأسلمت المجتمع وإقامة دين الله في الأرض.

قال ابن دقيق العيد: القياس يقتضي أن يكون الجهاد أفضل الأعمال التي هي وسائل, لأن الجهاد وسيلة إلى إعلان الدين ونشره, وإخماد الكفر ودحضه.

رابعاً: إن طريق أصحاب الدعوات, ومؤسسي المجتمعات, وبناة الأمم, ليس طريقاً مفروشاً بالورود والرياحين, ولا مروياً بالمسك والعطور, إن طريق بناة الأمم مروي بالدماء, ومعبد بالأشلاء, فهذا النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم يقول: (ما أوذي أحد ما أوذيت في الله عز وجل) , وهذا ورقة بن نوفل يقول له وقد نبيء صلى الله عليه وسلم (لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي..) فالابتلاء والإيذاء والمعاداة قدر كل داعية مخلص, يسعى إلى إقامة دين الله في الأرض.

أما الذين يمنون أنفسهم بتغيير المجتمعات, وتشييد الأمم عن طريق الدعوة السلمية, وإنشاء المؤسسات المهنية, وما أحسب ذاك إلا طمعاً في الدعة ورغبةً في الراحة ورهبةً من الابتلاء وهرباً من العناء هؤلاء - كما هو حال التيار السلفي الإصلاحي-لم يدركوا بعد طبيعة هذا الدين, ولم يفقهوا سنة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم, ولم يصلوا إلى ما يرجون.

خامساً: إن دعوة النبي صلى الله عليه وسلم لم تكن دعوة إصلاحية سلمية, تقتصر على الإصلاح الداخلي للمجتمع الجاهلي - كما هو حال السلفية الإصلاحية اليوم - بل كانت دعوة انقلابية على نواحي الحياة المختلفة, وبراءة من المشركين وشركياتهم, وحرباً لا هوادة فيها على الأنداد, التي تعبد من دون الله, فقد كان صلى الله عليه وسلم كما قال الله - عز وجل - واصفاً حال ابراهيم الخليل عليه السلام مع قومه: } إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللّهِ وَحْدَهُ {.

سادساً: لقد أثبتت التجارب والأحداث السابقة, فشل العمل المؤسسي في التغيير, خاصة في ظل حكم الأنظمة الطاغوتية المتسلطة على البشر والحجر, وما مؤسسات الريان والإخوان في مصر عنا ببعيد.

ومما سبق ذكره وبيانه يتبين لكل ذي بصيرة مبصرة, وصاحب رأي سديد وطالب حق منصف, أن منهج السلفية الإصلاحية في التغيير, هو منهج مخالف لمنهج النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم, ومصادم له ومجانب للحق الذي جاء به, ومخالف للسنن الكونية الإلهية, في التغيير والإصلاح وإقامة المجتمعات.

وحتى تزداد يقيناً على يقين, وتدرك حقيقة هذه السلفية الإصلاحية, وحقيقة ما تدعوا إليه, وتعلم فساد منهجها, وأنها حربٌ على الجهاد والمجاهدين, وماء سلسبيل على أعداء الدين, أورد لك - مع أن الجراب مليء بطوامهم - بعضاً مما أفصحت عنه ألسنت مرشديها ومنظريها ليتضح لك كيف ضربت بعرض الحائط كثيراً من المبادئ والثوابت والقطعيات, التي لا تقبل المساومة لإرضاء الغرب عنها قبل الشرق.

فمن ذلك ما قاله كبيرهم الدكتور سفر الحوالي, لمراسل الإذاعة اللندنية محقراً أبطال غزوتي نيويورك وواشنطن, ومستنكراً عليهم فعالهم المباركة: (الذين يقال أنهم قاموا بالعمل هم في الحقيقة ممن رفض المناهج وترك الدراسة, وبعضهم لا يدرس ولا ينتمي للعلم الشرعي أصلاً, بالعكس لو أن القضية هي قضية المناهج لكان الجميع أو كان عملاً يشترك فيه الكل, ولكن

هؤلاء كان لهم نظرات خاصة وكان لهم توجيه وتربية خاصة..اهـ
ومما قاله منفراً المسلمين عن الجهاد ونصرة المجاهدين في العراق, وذلك في معرض رده على أسئلة صحيفة عكاظ التي سألته مستفسرة : ما مشروعية ذهاب الشباب إلى العراق دون علم أولياء الأمور من عوائلهم أو السلطات الرسمية, والدخول في تنظيمات مسلحة تحت غطاء الجهاد ومقاومة المحتل الأمريكي في العراق.
الدكتور سفر: ليس في هذا مشروعية على الإطلاق, وهذا ما أوضحه لكل من سألني وبشكل يومي, وهناك أدلة كثيرة على هذا.
عكاظ: أفهم أنك لا تجيز سفر الشباب إلى العراق
الدكتور سفر: أبداً على الإطلاق, أنا أرد العشرات بل المئات يأتونني - سواء الآباء مع الأبناء أو العكس - يومياً.
عكاظ: هل تحض الآباء والأسر إلى المسارعة في إبلاغ السلطات عند تغيب أبنائهم.
سفر: طبعا, أعتقد أنه لابد أن يتخذ إجراء, بعض الأوقات يؤدي البلاغ إلى تداركه قبل أن يغادر البلاد, أعتقد أن هذا أمر مهم جداً حتى ينقذ الأب نفسه وابنه ولاشك أن المبادرة مطلوبة.) .
فهل بعد هذا التثبيط والتخذيل عن نصرة المجاهدين والدفاع عن أعراض المسلمات مزيد تعظيم لهم ولأقوالهم يا قواعد الإصلاح !؟ يقول ابن حزم رحمه الله: ولا إثم بعد الكفر أعظم من إثم من نهى عن جهاد الكفار وأمر بإسلام حريم المسلمين إليهم.
وتأملوا هنا لينه وموادعته لرأس الصليب "بوش", وبأسه وشدته وغلظته عندما تعلق الأمر بأبناء التوحيد المدافعين عن أعراض المسلمين, فقد قال مخاطبا رأس الصليب الأمريكي بوش في خطابه المفتوح له: أيها الرئيس: أنصحكم وأخوفكم بالله أن تقفوا وتكفُّوا عن العدوان, وتتعاملوا مع القضية بعدل وأناة وسوف تجدوننا معكم وبلا تحفظ..اهـ
وهذا منظرهم الآخر / الدكتور سلمان العودة يتوعد المجاهدين ويعزم القضاء عليهم, لأنهم في نظره شرذمة متطرفة, يجب تخليص المسلمين من شرها: إن من القدر أن يحتل اليهود فلسطين, ومنه أيضاً أن نجاهدهم, ومن القدر أن تتفشى الخرافة بين المسلمين ومنه أن نقاومها بالعلم والمعرفة الصحيحة, ومن القدر أن يوجد التطرف والعنف والإرهاب والتفجيرات, ولكن من القدر أيضاً أن نقاوم كل هذه السلبيات ونجاهدها وننتصر عليها بأذن الله.) .
تنتصر على من يا دكتور..؟! تنتصر عمن يحول بين أعراض المسلمين في جزيرة محمد صلى الله عليه وسلم, وبين من يريدها من الصليبيين وأحفاد ابن العلقمي من الروافض الحاقدين, أوما علمت أن حراب الصليبيين بعد أن مزقت صدور أهل العراق كان مقرراً لها أن تنال منكم.؟! ولكن الله أبى لكم ذلك بلطفه ورحمته, فهيأ لها أمثال أبي مصعب الزرقاوي -رحمه الله- ليردها في نحرها ويوقف بمعية رجاله زحف الصليب نحو دياركم.
وفي مقال آخر قال محقراً المجاهدين, واصفاً أبطال غزوة يوم الثلاثاء المبارك, بأنهم لا أخلاق لهم: (إن عدداً قليلاً من الناس دون أن يملكوا كبير شيء, يقدرون على إلحاق الضرر إذا لم يكن لديهم وازع أخلاقي ذاتي..) .
وإن تعجب فالعجب كل العجب, مما قاله منظر السلفية الإصلاحية في مصر/ جمال سلطان, وهو يحرض السلطات الطاغوتية, ويعلمها الطريق الأمثل للقضاء على المجاهدين: يقول هذا الإصلاحي: إن المواجهة مع الحركات الإسلامية المتشددة والتي تنتهج العنف سبيلاً بشكل خاص يحتاج إلى آلياتٍ خاصة, تمتزج فيها الحكمة بالصرامة, وعلوم النفس والاجتماع مع علوم الأمن وخبراته, وتتلاقى فيها جهود الفكر والحوار الجريء مع قوة السيطرة وحاجات الأمن الضرورية..) .
ومما قاله الأستاذ السلفي الإصلاحي/ زايد إبراهيم محمد "مدير جمعية القرآن والسنة" في الأردن, متخوفاً من ظهور وبروز الفكر الجهادي على حساب دعوته السلمية الإصلاحية: إن جمعيتنا جمعية ثقافية دعوية, ترفع شعار " علنية وسلمية الدعوة ", ولا تلتفت إلى الصدام مع أحد على حساب الدعوة والعمل للإسلام.. هذه الصورة للأسف غير واضحة عند بعض الجهات الأمنية, ونحن لا نريد أن يؤدي هذا الضغط غير المبرر إلى خروج واعتزال أفراد الجمعية المعروفين بالتوسط والاعتدال, على حساب بروز أفكار متطرفة لا سمح الله.) .
ولرواد ومنظري هذه السلفية الإصلاحية, أقول لهم مردداً, مع الأستاذ سيد قطب-رحمه الله- ما خطته أنامله في ظلاله القيم, لعله يجد لديهم آذاناً مصغية تعيه وتعمل به: لو كان الجهاد ملابسة طارئة في حياة الأمة المسلمة ما استغرق كل هذه الفصول من صلب كتاب الله, في مثل هذا الأسلوب ! ولما استغرق كذلك كل هذه الفصول من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي مثل هذا الأسلوب.. لو كان الجهاد ملابسة طارئة ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الكلمة الشاملة لكل مسلم إلى قيام الساعة "من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من النفاق ", إن

الله - سبحانه - يعلم أن هذا أمر تكرهه الملوك ! ويعلم أن لا بد لأصحاب السلطان أن يقاوموه, لأنه طريق غير طريقهم, ومنهج غير منهجهم, ليس بالأمس فقط, ولكن اليوم وغدا, وفي كل أرض, وفي كل جيل ! وإن الله -سبحانه- يعلم أن الشر متبجح, ولا يمكن أن يكون منصفا. ولا يمكن أن يدع الخير ينمو - مهما يسلك هذا الخير من طرق سلمية موادعة ! - فإن مجرد نمو الخير يحمل الخطورة على الشر, ومجرد وجود الحق يحمل الخطر على الباطل, ولا بد أن يجنح الشر إلى العدوان, ولا بد أن يدافع الباطل عن نفسه بمحاولة قتل الحق وخنقه بالقوة. هذه جبلة, وليست ملابسة وقتية, هذه فطرة, وليست حالة طارئة. ومن ثم لا بد من الجهاد. لابد منه في كل صورة. ولا بد أن يبدأ في عالم الضمير, ثم يظهر فيشمل عالم الحقيقة والواقع والشهود. ولا بد من مواجهة الشر المسلح بالخير المسلح,ولا بد من لقاء الباطل المتترس بالعدد بالحق المتوشح بالعدة. وإلا كان الأمر انتحارا, و كان هزلا لا يليق بالمؤمنين! ولا بد من بذل الأموال والأنفس.كما طلب الله من المؤمنين. وكما اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة. فأما أن يقدر لهم الغلب, أو يقدر لهم الاستشهاد, ذلك شأنه - سبحانه - وذلك قدره المصحوب بحكمته. أما هم فلهم إحدى الحسنيين عند ربهم. والناس كلهم يموتون عندما يحين الأجل. والشهداء وحدهم هم الذين يستشهدون..اهـ

وبهذا القدر من الحديث عن السلفية الإصلاحية, نكون قد انتهينا من هذا الفصل الذي خصصناه للحديث عن أهم الحركات الإسلامية. التي تتبنى مناهج معينة في التغيير وإقامة شرع الله وتشييد المجتمع المسلم وقد بينا - بتوفيق الله وفضله - عور تلك المناهج, ومجانبتها للصواب ومصادمتها الصريحة للهدي النبوي الكريم في إقامة المجتمع المسلم وتشييد الخلافة الراشدة.

وأختم هذا الفصل من الحديث عن الحركات الإسلامية بما قاله الإمام ابن القيم في مدارج السالكين. لعل الله ينفع به من أراد الانتفاع, ويهدي به من أراد طريق الحق والصواب. إنه الهادي إلى سواء السبيل: يقول رحمه الله واصفاً الصحابة الكرام: (وكان دين الله سبحانه, أجلَّ في صدورهم وأعظم في نفوسهم من أن يقدّموا عليه رأيا أو معقولا, أو تقليدا أو قياسا فطار لهم الثناء الحسن في العالمين, وجعل الله سبحانه لهم لسان صدق في الآخرين, ثم سار على آثارهم الرعيل الأول من أتباعهم,ودرج على منهاجهم الموفقون من أشياعهم, زاهدين في التعصّب للرجال, واقفين مع الحجة والاستدلال, يسيرون مع الحق أين سارت ركائبه, ويستقلون مع الصواب. حيث استقلت مضاربه, إذا بدا لهم الدليل. بأخذته, طاروا إليه زرافات ووحدانا, وإذا دعاهم الرسول إلى أمر انتدبوا, لا يسألونه عما قال برهانا, ونصوصه أجلَّ في صدورهم, وأعظم في نفوسهم من أن يقدموا عليها قول أحد من الناس, أو يعارضوها برأي أو قياس.. ثم قال محذّرا: ثم خلف من بعدهم خلوف, فرّقوا دينهم, وكانوا شيعا كلّ حزب بما لديهم فرحون, وتقطّعوا أمرهم بينهم زبرا, وكلّ الى ربهم راجعون, جعلوا التعصّب للمذاهب ديانتهم التي بها يدينون, ورؤوس أموالهم التي بها يتجرون, وآخرون منهم قنعوا بمحض التقليد, وقالوا إنا وجدنا آباءنا على أمّة, وإنا على آثارهم مقتدون. والفريقان معزل عما ينبغي اتباعه من الصواب, ولسان الحق يتلوا عليهم ليس بأمانيّكم, ولا أمانيّ أهل الكتاب, قال الشافعي قدس الله تعالى روحه أجمع المسلمون على أن من استبانت له سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم, لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس.اهـ

وبعد هذا الذي ذكرناه لك يا باغي الخلافة الراشدة, يا من تطلعت يوماً إلى تفيء ظلال دوحة الإسلام. أسوق إليك الطريق المفضي إلى التمكين لدين الله في الأرض. معتمدين كل الاعتماد على الهدي النبوي الكريم, والسنن الإلهية التي أودعها الله في هذا الكون. والله ولي التوفيق وهو الهادي إلى سواء السبيل.

طريق التمكين

إن من الأمور المُسَلّم بها عند كل عالم بدين الله, أن العمل لإقامة دين الله في الأرض, وتشييد الخلافة الراشدة, وتنصيب إمام للمسلمين, أمر واجب وفريضة لازمة, لا يسع الفرد المسلم تركها, إن قدر على ذلك, كما قرر علماء أهل السنة والجماعة.

قال الإمام الماوردي رحمه الله: (الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا وعقدها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع..)

وقال الإمام الليثي رحمه الله في الصواعق المحرقة: (اعلم أن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعوا على أن نصب الإمام بعد انقراض زمن النبوة واجب, بل جعلوه أهم الواجبات حيث اشتغلوا به عن دفنه صلى الله عليه وسلم.)

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: يجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين بل لا قيام للدين ولا للدنيا إلا بها, فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض ولابد لهم عند الاجتماع من رأس حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم: " إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم ", وقال صلى الله عليه وسلم: " لا يحل لثلاثة نفر يكونون بفلاة من الأرض إلا أمروا عليهم أحدهم " فأوجب صلى الله عليه وسلم تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر, تنبيهاً بذلك على سائر أنواع الاجتماع, ولأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر, ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة, وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل وإقامة الحج والجمع والأعياد ونصر المظلوم, وإقامة الحدود لا تتم إلا بالقوة والإمارة ـ إلى قوله ـ فالواجب اتخاذ الإمارة ديناً وقربةً يتقرب بها إلى الله, فإن التقرب إليه فيها بطاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم من أفضل القربات وإنما يفسد فيها حال أكثر الناس لابتغاء الرياسة أو المال بها.) .

فالعمل لهذا الدين والسعي الجاد لإقامة شرع الله وتنصيب إمام للمسلمين أمر واجب, وفريضة متعينة على كل مسلم, كما قرر ذلك أئمتنا رحمهم الله, ولا يعذر من هذه المسؤولية والتبعة الثقيلة إلا من أعذره الله.

وإليك يا أخا الهدى أولى الخطوات الجادة في الطريق الطويل اللاحب المفضي إلى تمكين المؤمنين, ومن ثم تشييد الخلافة الراشدة إن شاء الله تعالى, وعلى أكتاف المخلصين من أبناء هذه الأمة الماجدة, والله ولي التوفيق والهادي إلى سواء السبيل.

الانخراط في صفوف الجماعة المسلمة الحقة

لقد شاء الله العزيز الحكيم لهذا الإنسان وقدر, أن لا تصلح أحواله, ولا تستقيم أمور حياته إلا بالاجتماع, ولا يمكن بحال من الأحوال أن يتصور المرء مجتمعاً قائماً بذاته, وكل فرد فيه منفرداً بذاته عن الآخر, نائياً بشخصه عن محيطه, مكتفياً بتسيير شأنه بنفسه.

ولقد تنوعت أشكال المجتمعات البشرية التي قامت, سواء في العهود القديمة السابقة, أو العصور الحديثة الحاضرة, واختلفت أنماط معيشتها, وبرزت بعدة وجوه وأشكال مختلفة... فتارة بدت على شكل ممالك, وتارة أخرى على شكل تجمعات قروية بسيطة, وتارة ثالثة على شكل قبائل بدوية متنقلة, ولكن القاسم المشترك الذي جمع بين تلك الأنماط المختلفة, هو وجود رجل ذو أوصاف معينة اجتمعت عليه الكلمة, وغدا الرأس المطاع يدين له الجميع بالولاء والسمع والطاعة لما يسنه ويقرره, بغض النظر عن مصدر تلك التشريعات, التي يعمل على نشرها وتطبيقها, في واقع المجتمع الذي يقوده ويرأسه ويشرف عليه.

ومع انهيار الخلافة العثمانية وغياب خليفة المسلمين, برزت في ساحات العالم الإسلامي الكبير, كنتيجة حتمية لملأ الفراغ الذي خلّفه غياب خليفة المسلمين, عدة تجمعات إسلامية, ذات أنماط وأشكال مختلفة, كان الهدف من إنشائها وقيامها إعادة صرح الخلافة الراشدة إلى واقع الحياة البائس, وتسويد أمة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم عرشها, الذي اغتصبه أبناء الصليب ورثة الروم, وحالوا بمكرهم دون إعادة مجده المؤثل, وما أن برزت تلك الجماعات الإسلامية, حتى بدأ تسابق أبناء الإسلام على اللحاق بركبها والانضواء تحت لوائها, بعد أن تيقنوا يقيناً لا يخالجه شك, أن التمكين لدين في الأرض

لا بد له من جماعة, ينضوي الفرد المسلم تحت لوائها, ويلتحق بصفوفها ويعمل من خلالها, ليصل إلى هدفه المنشود ويحقق مقصده المحمود, ببناء المجتمع المسلم الذي يتبعه إقامة خلافة الله في الأرض.

وأدرك كذلك كل مسلم غيور على دين الله, أن إقامة حكم الله في الأرض من غير التزام بصفوف الجماعة المسلمة, هو ضرب من ضروب الخيال, وأحلام وردية, سرعان ما يفيق منها صاحبها ليجد نفسه وحيداً, وقد تكسرت أحلامه واصطدمت بصخرة الواقع المرير, وتلاشت جهوده دون تحقيق مقصده, الذي أفنى الكثير من عمره في العمل لتحصيل نتيجة طيبة له.

وإذا كنا قد علمنا وتيقنا من حقيقة أن لا وجود لمجتمع تعلوه شريعة الله بغير الالتزام بصفوف الجماعة المسلمة, والعمل من خلالها, فما هو إذن تعريف الجماعة المسلمة..؟ وما هي الأدلة على وجوب التزام جماعة المسلمين..؟ وما هي أهم صفات وسمات الطائفة المنصورة التي يجب على كل مسلم أن يلزم غرزها ويكثر من سوادها إن وجد إلى ذلك سبيلا..؟ وعلى أي الجماعات العاملة في الساحة الإسلامية اليوم تنطبق هذه الصفات..؟

تعريف الجماعة المسلمة

اعلم - يرحمك الله - أن الجماعة بالمعنى الاصطلاحي هم: أهل الحق والدين, المتمسكون بما كان عليه النبي الكريم صلى الله عليه وسلم وصحبه الميامين, ولو كانوا قلة في الناس غرباء, ولا يضرهم ذلك, فهذا هو حال الأنبياء والرسل, وحال ورثتهم المخلصين لله بين البشر, قال الحسن البصري رحمه الله: السنة والذي لا إله إلا هو بين الغالي والجافي فاصبروا عليها رحمكم الله, فإن أهل السنة كانوا أقل الناس فيما مضى, وهم أقل الناس فيما بقي, الذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف في إترافهم, ولا مع أهل البدع في بدعهم, وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم, فكذلك إن شاء الله فكونوا.) .

ومما يجب أن تعلمه يا باغي الحق, أن أئمة الهدى ومصابيح الدجى, من علماء هذه الأمة قد اختلفوا - رحمهم الله - في توصيف الجماعة وما المقصود منها, كما ذكر ذلك شيخنا عبد الحكيم حسان في كتابه القيم: ((هداية المجاهدين إلى وصية النبي الأمين " الجماعة ")) فقال بعضهم: المقصود في الجماعة من كان على الحق والطاعة ولو كان فرداً واحدا, لأن الحق هو الذي يلزم أتباعه لا غير, وقال بعضهم هم السواد الأعظم يعني جمهور المسلمين, لأن الله تعالى لا يجمع أمة محمد صلى الله عليه وسلم على ضلالة, وقال آخرون هم جماعة المسلمين, الذين اجتمعوا على أمير واحد يسمعون له ويطيعون, والحق من ذلك أن الجماعة هي الحق ولو كان عليه واحد, وإن كان الغالب ولله الحمد أن جمهور أهل الإسلام على الحق, فإن كان جمهور الناس بما فيهم علماؤهم الذين اجتمعوا على طاعة إمامهم وأميرهم على الحق فهم المقصودون بالجماعة حينئذ لا بعددهم ولكن لاتباعهم الحق, وإن خالف الجمهور الحق فليسوا هم حينئذ الجماعة, والجماعة هم أهل الحق وإن كانوا الأقلين.. وقد رأينا في كثير من الأزمنة والعصور في القديم والحاضر أن غالب الناس على العموم وجمهورهم لم يكونوا على الحق والهدى, وأن القلة منهم هم أهل السنة والجماعة المتبعين لما جاء به الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم من العلم والهدى ودين الحق.) .

ثم فصل الشيخ - حفظه الله - في كتابه وساق الكثير من الأدلة على صحة وصواب ما ذهب إليه من أن الالتزام مع الحق والسير في ركبه, هو الجماعة والعصمة والنجاة.

كما قال الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك.) . ومن أراد المزيد فعليه بالكتاب السابق ذكره ففيه ما يسر النفس ويبهج القلب والله الموفق للحق.

وجوب التزام جماعة المسلمين وعدم التفرق في الدين

إن المتبصر في كتاب الله، والمبحر بين ثناياه يدرك أن العلي القدير عظّم أمرَ اجتماع كلمة المسلمين وأعلى شأنها وأجلّ قدرَها وذلك لما يترتب على الاجتماع من فوائد جليلة ومصالح عظيمة، وحذر كل التحذير من اختلاف كلمة أبناء هذا الدين، وذلك لما يترتب على الفرقة والاختلاف، من عواقب وخيمة ومفاسد جسيمة كبيرة، لا بد أن تنال كل موحد غيور على دينه وعقيدته..

ففي مواطن عديدة من الذكر الحكيم، أمر أرحم الراحمين أتباع محمد صلى الله عليه وسلم بالتزام جماعة المسلمين، ونهاهم عن التفرق في الدين، فقد قال جل وعلا مخاطباً ورثة الحق المبين، وإلى يوم الدين: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا }. وقال تعالى: { وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ }. وقال تعالى: { وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ }.

وغير هذا كثير في كتاب الله، مما يأمر بالاجتماع والألفة وعدم الاختلاف والفرقة، فهو من أعظم ما أوجبه الله ورسوله على المسلمين، وكما قال شيخ الإسلام ابن تيمية و الاعتصام بحبل الله وعدم التفرق هو من أعظم أصول الإسلام وما عظمت وصية الله تعالى به في كتابه، وما عظم ذمه لمن تركه من أهل الكتاب وغيرهم، وما عظمت به وصية النبي صلى الله علية وسلم في مواطن عامة وخاصة مثل قوله: " عليكم بالجماعة فإن يد الله على الجماعة " وقوله: " فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد ".

وكما قال ابن كثير في تفسيره: { ولا تفرقوا } أمرهم بالجماعة ونهاهم عن التفرقة.) .

وقال الطبري في تفسيره لهذه الآية: { وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرّقُوا} يعني: وتعلقوا بأسباب الله جميعا. يريد بذلك تعالى ذكره: وتمسكوا بدين الله الذي أمركم به، وعهده الذي عهده إليكم في كتابه من الألفة والاجتماع على كلمة الحقّ والتسليم لأمر الله، والحبل فإنه السبب الذي يوصل به إلى البغية والحاجة، ولذلك سمي الأمان حبلاً، لأنه سبب يوصل به إلى زوال الخوف والنجاة من الجزع والذعر. وعن ابن مسعود أنه قال في قوله: { واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعا } قال: الجماعة. وقال ابن عباس في قوله: {وَلا تَكُونُوا كالّذِينَ تَفَرّقُوا وَاخْتَلَفُوا} ونحو هذا في القرآن، أمر اللّه جلّ ثناؤه المؤمنين بالجماعة، فنهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم أنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله) .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق الشعبي عن ثابت بن فطنة المزني قال: سمعت ابن مسعود يخطب وهو يقول: أيها الناس عليكم بالطاعة والجماعة فإنهما حبل الله الذي أمر به.

وأخرج ابن أبي حاتم عن سماك بن الوليد الحنفي، أنه لقي ابن عباس فقال: ما تقول في سلاطين علينا يظلموننا، ويشتمونا، ويعتدون علينا في صدقاتنا، ألا نمنعهم؟ قال: لا. أعطهم، الجماعة الجماعة، إنما هلكت الأمم الخالية بتفرقها، أما سمعت قول الله { واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرَّقوا } .

ولقد تواترت الأحاديث النبوية الآمرة بوجوب اجتماع كلمة المسلمين، وعدم التفرق في الدين، كما تفرقت الأُمم السابقة فمن ذلك ما رواه أبو هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله يرضى لكم ثلاثاً، ويسخط لكم ثلاثاً، يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولّاه الله أمركم، ويسخط لكم ثلاثا: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال.) .

فإحدى الثلاث المرضية عنده سبحانه وتعالى الاعتصام بحبل الله وعدم التفرق, وهو كما قال النووي في شرحه لمسلم: أمر بلزوم جماعة المسلمين وتألف بعضهم ببعض وهذه احدى قواعد الإسلام واعلم أن الثلاثة المرضية احداها أن يعبدوه الثانية أن لا يشركوا به شيئا الثالثة أن يعتصموا بحبل الله ولا يتفرقوا.

وقال صلى الله عليه وسلم: (عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة.) .

فانظر كيف يتسلط الشيطان على الواحد وينفرد به، كما ينفرد الذئب بالغنم القاصية، وتأمل كيف أن الاجتماع هو مخالفة

للشيطان وتبكيتاً له, وحفظاً وصوناً من الزلة والضياع, وانظر كيف جعل بحبوحة الجنة وسعتها والسكن في أوسطها لمن يلزم جماعة المسلمين, ويتفيء ظلال دوحتهم الوارفة, بعيداً عن الخصومات والنزاعات والفرقة والاختلاف.

وعن تميم الداري قال: (تطاول الناس في البنيان زمن عمر بن الخطاب فقال: يا معشر العرب الأرض الأرض إنه لا إسلام إلا بجماعة ولا جماعة إلا بإمارة ولا إمارة إلا بطاعة ألا من سوده قومه على فقه كان حياةً له ولهم, ومن سَوَّدَهُ قومه على غير فقه كان ذلك هلاكا له ولهم.) .

وقال الإمام الأوزاعي: (كان يقال, خمسٌ كان عليها أصحابُ محمد والتابعون بإحسان: لزوم الجماعة , واتباع السنة , وعمارة المسجد , وتلاوة القرآن , والجهاد في سبيل الله.) .

أهم صفات وخصائص الطائفة المنصورة الظاهرة على الحق

في خضم هذا الكم الهائل من الجماعات والطوائف والتي ملئت الدنيا بضجيجها وصراخها, ومع ادعاء كل حزب أنه حزب الله, وأنه الطائفة المنصورة, وأن طريق الخلاص لا بد كائن على يديه ويديه فقط.! كان لزاماً علينا والحالة ما أسلفنا, أن نبحر في بحر الحق الذي نعتقده, وننثر ما علمنا منه بين يدي من أراد الصراط السوي المستقيم, ليكون كل مسلم على بصيرة من أمره وأمر دينه, غير متخبطٍ في متاهات سراديب هذه الجماعات وتلك الطوائف, وهذا الذي نضعه بين يدي قارئ هذه الورقات, هو عرض موجز لخصائص وصفات الطائفة المنصورة الظاهرة على الحق, التي يجب على كل مسلم اللحاق بركبها, وتكثير سوادها, والعمل بين صفوفها إن قدر على ذلك, وإلا نصرها بالدعاء والذب عنها والتحريض على اللحاق بها, وليعلم القاصي والداني أن الانتساب للطائفة المنصورة, ليس دعوى زائفة ينقصها العمل, ولا رفع شعار من غير تجسيده واقعاً حياً في دنيا البشر, ولا هوىً خالج النفس من غير إقامة البرهان والدليل.! وإنما هو عملٌ بالتكاليف الشرعية, وتمثلٌ لله بالقيام بالفرائض الربانية, والله الهادي إلى سواء السبيل.

أولاً: إن أعظم صفة من صفات الطائفة المنصورة الظاهرة, أنها مقتدية ومتبعة لما جاء به الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم سائرة على منهاجه القويم, دون تحريف ولا ابتداع في الدين, مقتفية آثار صحابته الكرام, وأثار السلف الصالح, وخاصة أصحاب القرون الأولى الثلاث, الذين شهد لهم بالخيرية والسداد والرشد, نبيّ البشرية الموحى إليه, فقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق على صحته أنه قال: (خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم..) .

وقال صلى الله عليه وسلم: (قد تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها, لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك, ومن يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم ما عرفتم في سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين, عضوا عليها بالنواجذ.) .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية: أحق الناس بأن تكون هي الفرقة الناجية أهل الحديث والسنة , الذين ليس لهم متبوع يتعصبون له إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم أعلم الناس بأقواله وأحواله وأعظمهم تمييزا بين صحيحها وسقيمها وأئمتهم فقهاء فيها وأهل معرفة بمعانيها واتباعا لها: تصديقاً وعملاً وحباً وموالاةً لمن والاها ومعاداةً لمن عاداها الذين يروون المقالات المجملة إلى ما جاء به من الكتاب والحكمة, فلا ينصبون مقالة ويجعلونها من أصول دينهم وجمل كلامهم إن لم تكن ثابتة فيما جاء به الرسول بل يجعلون ما بعث به الرسول من الكتاب والحكمة هو الأصل الذي يعتقدونه ويعتمدونه.

ثانياً: أما ثاني هذه الصفات التي تتميز بها الطائفة المنصورة, أنها تعادي في الله وتوالي في الله, فلا تقرب قريباً أبعده الله, ولا تبعد بعيداً قربه الله, بل تعقد المحبة في قلبها لكل موحد, مؤمن بالله ملتزم أوامره مجتنب نواهيه, وبقدر قربه من الله تكون محبته في قلوب أتباع الحق المبين, ينصرونه بالغالي والرخيص والنفس والنفيس, وليس من أبجديات الطائفة المنصورة, ولا في مفاهيمها وتصوراتها, أن تعقد في قلبها ولاءً على أساس الوطن, أو القوم الواحد واللسان الواحد, أو القبيلة والعشيرة الواحدة, بل تجدهم من أقوام شتى, وأوطان مختلفة, ولكن التوحيد الخالص جمع بين قلوبهم, فلله درهم من طائفة حق, اجتمعت على حب الله وتفرقت على حبه.

وقد أخبر سبحانه وتعالى عن هذه الصفة العظيمة, في مواطن كثيرة في كتابه الكريم, وأمر بها وحثّ عليها, فهي أساس متين في هذا الدين, لا غنى للمسلم عنها.. قال تعالى: } وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّه وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّه إِنَّ اللَّه عَزِيزٌ حَكِيمٌ { (التوبة:٧١)

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم : (أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله, والمعاداة في الله, والحب في الله, والبغض في الله عز وجل.) .

وقال صلى الله عليه وسلم : (من أحب لله, وأبغض لله, وأعطى لله, ومنع لله, فقد استكمل الإيمان.) .
يقول الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في معرض حديثه عن الولاء والبراء في هذا الدين العظيم: (فالله الله يا إخواني تمسكوا بأصل دينكم, وأوله وآخره وأسه ورأسه, شهادة أن لا إله إلا الله, واعرفوا معناها, وأحبوها وأحبوا أهلها واجعلوهم إخوانكم ولو كانوا بعيدين, واكفروا بالطواغيت وعادوهم وابغضوهم, وابغضوا من أحبهم أو جادل عنهم أو لم يكفرهم أو قال: ما علي منهم, أو قال: ما كلفني الله بهم, فقد كذب هذا على الله وافترى, فقد كلفه الله بهم وافترض عليه الكفر بهم والبراءة منهم ولو كانوا إخوانهم وأولادهم, فالله الله, تمسكوا بذلك لعلكم تلقون ربكم لا تشركون به شيئاً, اللهم توفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين.) .
وبهذه النصوص وغيرها الكثير يتبين أن بغض الكافر الأصلي الغريب أو المحلي الوطني، أصل متين في منهاج كل جماعة تدعي أنها على الحق المبين, بل هو مقياس حقيقي بيِّن لصدق دعوتها.
ثالثاً: ومن هذه الصفات العظيمة التي تتميز بها الفرقة المنصورة الظاهرة عن غيرها, أن جهاد الطواغيت من عرب وعجم بالسيف والسنان والقلم والبيان عنوانها وسمتها الظاهرة المعروفة بها، وهذه الصفة العظيمة تجدها واضحة جلية، في أحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم وهو يتحدث عن الطائفة المنصورة الظاهرة على الحق في آخر الزمان وفي كل الأزمان, فقد قال صلى الله عليه وسلم واصفاً طوائف التوحيد المنصورة بقوله: (لن يبرح هذا الدين قائماً يُقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة) .
وقال e: (لا تزال طائفةٌ من أمتي يُقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة.) .
وقال e: (لا تزال طائفة من أمتي يُقاتلون على الحق, ظاهرين على من ناوأهم حتى يُقاتل آخرُهم المسيح الدجال.) .
وعن سلمة بن نفيل الكندي, قال: كنت جالساً عند رسول الله e, فقال رجل: يا رسول الله، أذال النّاس الخيل ووضعوا السلاح, وقالوا: لا جهاد, قد وضعت الحرب أوزارها ! فأقبل رسول الله e بوجهه وقال: (كذبوا, الآن, الآن جاء القتال، ولا يزال من أمتي أمة يُقاتلون على الحق ويُزيغ الله لهم قلوب أقوام ويرزقهم منهم, حتى تقوم الساعة, وحتى يأتيَ وعد الله, والخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة.) .
وقال e: (لا تزال طائفة من أمتي منصورين لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة.) .
قال الإمام أحمد رحمه الله وقد سئل عن الطائفة المنصورة: (هم الذين يقاتلون الروم كل من قاتل المشركين فهو على الحق.)
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: أما الطائفة بالشام ومصر ونحوهما فهم في هذا الوقت المقاتلون عن دين الإسلام، وهم من أحق الناس دخولاً في الطائفة المنصورة التي ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله في الأحاديث الصحيحة المستفيضة عنه: {لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة}...
نعم يا أخا الرشد إن الجهاد في سبيل الله بالسيف والسنان، لإقرار الحق وتشييد خلافة الله في الأرض، وإقامة حكمه وتطبيق شرعه، الذي استبدله أبناء الجاهلية بدساتير من صنع أهوائهم, وما توحيه إليه شياطينهم, هو من أهم صفات الطائفة الظاهرة على الحق في زمن الجاهلية.
رابعاً: ومن صفات العصبة المنصورة الظاهرة على الحق، أن تعاديها أحلاف الجاهلية، وتقف في وجهها مجاميع الشيطان، وكل دعوة لا تعاديها الجاهلية فهذه دعوة وجماعة ناقصة، ليست على الحق المبين إن توحيدها مبتور مقطوع, ومنهجها لا شك فيه أعوج.. وكيف لا تكون المعاداة وهذا ورقة بن نوفل يبين معالم طريق الدعوات للنبي الكريم عليه الصلاة والسلام في بداية الدعوة بقوله: ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا عودي.) .
قال ابن القيم رحمه الله: فكل من دعا إلى نفس ما جاء به الرسول فهو من أتباعه فلا بد أن يناله من الأذى من أتباع الشيطان بحسب حاله وحالهم والله المستعان.
نعم لم يأت أحداً بمثل ما جاء به المصطفى صلى الله عليه وسلم إلا عودي لأن دعوته دعوة لاجتثاث الباطل من جذوره فهي لا ترضى بأنصاف الحلول، ودعوة لتحطيم عروش الطواغيت المتألهين الذين عاثوا في العباد والبلاد فساداً، والى الله المشتكى.
خامساً: ومن سمات وصفات الطائفة المؤيَدة، أنها تأخذ هذا الدين بشموليته الكاملة، فلا تجزؤه أجزاءً تتمسك بجانب توليه كل اهتمامها، وتترك بقية الجوانب، بل تعطي كل جانب وكل جزئية حقها المطلوب، مقتديةً بالمعلم الأول والمربي الأكرم محمد صلى الله عليه وسلم، الذي جاهد أحلاف الجاهلية بالسيف والسنان, ودعا قومه وأنذر باللسان، وزكى نفوس أصحابه وأبهر العقول والأذهان، وعبد ربه حتى تفطرت قدماه وبكت العينان, بأبي هو وأمي صلوات الله وسلامه عليه.. } لَقَدْ كَانَ لَكُمْ

فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (الاحزاب: ٢١) وقال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً } (البقرة:٢٠٨)

قال السعدي رحمه الله في تفسيره: هذا أمر من الله تعالى للمؤمنين أن يدخلوا { فِي السِّلْمِ كَافَّةً } أي: في جميع شرائع الدين، ولا يتركوا منها شيئاً، وأن لا يكونوا ممن اتخذ إلهه هواه، إن وافق الأمر المشروع هواه فعله، وإن خالفه تركه، بل الواجب أن يكون الهوى، تبعاً للدين، وأن يفعل كل ما يقدر عليه، من أفعال الخير، وما يعجز عنه، يلتزمه وينويه، فيدركه بنيته.

نعم إن من أعظم الدلائل التي تدل على الطائفة المنصورة، أنها تتأسى بنبيها الكريم، فتدعوا إلى الله وتقاتل في سبيل الله، وتزكي نفسها بالعبادة، وتعمل جاهدة على إقرار حكم الله في الأرض، بالسيف والسنان.

سادساً: ومن صفات الطائفة المنصورة، أن يتعرض أتباعها وحملتها للابتلاء والمحنة والخطوب والأرزاء, وهذا حال الرسل وأتباعهم وورثتهم } أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (البقرة:٢١٤)

وكل دعوة لا تنال نصيبها من الابتلاء، ولا تأخذ بحظها من المحنة، فهذه جماعة ليست على الجادة المستقيمة، لقد حادت عن طريق الرسل وتنكبت صراطهم، قال صلى الله عليه وسلم: (ما أوذي أحد ما أوذيت في الله عز وجل..) .

يقول سيد رحمه الله في ظلاله وذلك في معرض حديثه عن الابتلاء: إن الإيمان أمانة الله في الأرض، لا يحملها إلا من هم لها أهلٌ وفيهم على حملها قدرة، وفي قلوبهم تجرد لها وإخلاص، وإلا الذين يؤثرونها على الراحة والدعة, وعلى الأمن والسلامة, وعلى المتاع والإغراء، وإنها لأمانة الخلافة في الأرض, وقيادة الناس إلى طريق الله، وتحقيق كلمته في عالم الحياة، فهي أمانة كريمة وهي أمانة ثقيلة، وهي من أمر الله يضطلع بها الناس، ومن ثم تحتاج إلى طراز خاص يصبر على الابتلاء.

ويقول رحمه الله: حقيقة الإيمان لا يتم تمامها في قلب حتى يتعرض لمجاهدة الناس في أمر هذا الإيمان، لأنه يجاهد نفسه أولاً في أثناء مجاهدته للناس، وتتفتح له في الإيمان آفاق لم تكن لتتفتح له أبداً وهو قاعد آمن سالم، وتتبين له حقائق في الناس وفي الحياة لم تكن لتتبين له أبداً بغير هذه الوسيلة، ويبلغ هو بنفسه وبمشاعره وتصوراته وبعاداته وطباعه وبانفعالاته واستجاباته ما لم يكن ليبلغه أبداً بدون هذه التجربة الشاقة المريرة.

وحقيقة الإيمان لا يتم تمامها في جماعة حتى تتعرض للتجربة والامتحان والابتلاء وحتى يتعرف كل فرد فيها على حقيقة طاقته وعلى حقيقة غايته، ثم تتعرف هي على حقيقة اللبنات التي تتألف منها مدى احتمال كل لبنة ثم مدى تماسك هذه اللبنات في ساعة الصدام.

سابعاً: ومن صفات الطائفة المنصورة الثبات على المبادئ التي تحملها، وعلى الحق الذي معها، وإن خذلها الخاذلون، وخالفها الأكثرون، يموت أحدهم دون الحق الذي آمن به، ودون العقيدة التي يقاتل من أجلها، ويصبر على مشاق تكاليفها، فهي ليس متاعاً يباع ويشترى، بل هو إيمانٌ راسخٌ ويقينٌ ثابت بصحة الطريق القويم الذي يسلكه.

قال هرقل في معرض سؤاله لأبي سفيان عمن أسلم مع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم: هل يرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه فزعمت أن لا وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب لا يسخطه أحد.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: وأما أهل السنة والحديث فما يعلم أحد من علمائهم ولا صالح عامتهم رجع قط عن قوله واعتقاده بل هم أعظم الناس صبراً على ذلك وإن امتحنوا بأنواع المحن وفتنوا بأنواع الفتن وهذه حال الأنبياء وأتباعهم من المتقدمين كأهل الأخدود ونحوهم وكسلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين وغيرهم من الأئمة حتى كان مالك رحمه الله يقول: لا تغبطوا أحدا لم يصبه في هذا الأمر بلاء. يقول: إن الله لا بد أن يبتلي المؤمن فإن صبر رفع درجته كما قال تعالى: { الم. أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين.}

وهكذا يتبين لكل مسلم أن من الدليل على قوامة الطائفة الظاهرة القائمة بأمر الله، المتبعة لهدي النبي صلى الله عليه وسلم، أن تنال نصيبها من الابتلاء والمحنة، والغربة والتنكيل.

فإذا كنا قد علمنا معظم سمات الطائفة الحقة المنصورة, فعلى أيّ الجماعات العاملة في الساحة الإسلامية اليوم تنطبق هذه الصفات.؟

إن المتأمل اليوم في حال المسلمين وما وصلت إليه من تسلط للكفار وهتك للأعراض وانتهاب للخيرات ومن ذلة غشيت المسلمين حتى لم تدع بيتاً إلا ولجته، لا يكاد يرى فرقاً كبيراً بين حالنا وحال المسلمين في زمن تسلط التتار المفسدين على العباد والبلاد، وانقسام الناس في هذه الفتن كما قال شيخ الإسلام الى ثلاثة أقسام يقول رحمه الله: فهذه الفتنة قد تفرق الناس فيها ثلاث فرق: الطائفة المنصورة وهم المجاهدون لهؤلاء القوم المفسدين، والطائفة المخالفة وهم هؤلاء القوم ومن تحيز إليهم من خبالة المنتسبين إلى الإسلام، والطائفة المخذلة وهم القاعدون عن جهادهم، وإن كانوا صحيحي الإسلام.

فلينظر الرجل أيكون من الطائفة المنصورة أم من الخاذلة أم من المخالفة ؟ فما بقي قسم رابع. واعلموا أن الجهاد فيه خير الدنيا والآخرة وفي تركه خسارة الدنيا والآخرة قال الله تعالى في كتابه:{ قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين } يعني: إما النصر والظفر وإما الشهادة والجنة فمن عاش من المجاهدين كان كريماً له ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة، ومن مات منهم أو قتل فإلى الجنة.

وحالنا اليوم والى الله المشتكى لا يبعد كثيراً عن حال أولئك السابق ذكرهم، بل يفوقهم أضعافاً مضاعفة من السوء كما يتضح ذلك لمن ألهمه الله رشده، وقد تفرق الناس في هذه الفتن التي غشت المسلمين الى ثلاث فرق:

فرقة تقاتل على أمر الله من كفر بالله لا يأخذها في ذلك لومة لائم، ولا خذل خاذل، ولا إرجاف مرجف، ولا تثبيط مثبط، وهؤلاء هم المجاهدون في سبيل الله ومن والاهم ونصرهم باللسان والسنان.

وفرقة أرعبتها وجففت الدماء في عروقها صيحت رأس الصليب الأمريكي جورج بوش " إما معنا أو مع الإرهاب " أي إما مع الصليبية وإما مع الإسلام وطليعته المجاهدة، فراحت هذه الفرقة تتزلف للصليبين ولعمالاهم على بلاد المسلمين من الحكام المرتدين، بل غدا كثيرٌ منهم عيناً وبوقاً للكفار ينصرهم أكثر من نصرتهم هم لأنفسهم والعياذ بالله.

وفرقة لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء قد أشغلتها الدنيا وهمتها، وقَصُرت أفهامها عن ما يدور حولها وما يحاك للمسلمين من مؤامرات تستهدف الدين والدنيا وهم القاعدون.

وبناءً على هذا التقسيم وذلك الوصف، وقياساً على كلام شيخ الإسلام وتوصيفه لحال المسلمين في ذاك الزمان، الذي تسلط فيه التتار على المسلمين نجد دون أدنى شك أن الطائفة المقاتلة في سبيل الله اليوم والذائدة عن حمى الإسلام هي الطائفة المنصورة التي يجب على كل مسلم تكثير سوادها، والانضمام الى صفوفها، ونصرتها بالنفس والمال والدعاء في أقل الأحوال وعلى الله وحده التكلان.

قال شيخ الإسلام محدداً الطائفة المنصورة في زمنه رحمه الله: أما الطائفة بالشام ومصر ونحوهما فهم في هذا الوقت المقاتلون عن دين الإسلام، وهم من أحق الناس دخولاً في الطائفة المنصورة التي ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله في الأحاديث الصحيحة المستفيضة عنه: {لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة}...

ولا شك أن تلك الطوائف التي كانت تقاتل في زمنه كانت تقاتل التتار ومن لفَّ لفَّهم من المرتدين والرعاع الذين قاتلوا تحت راية التتار ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ولمزيد إيضاح وبيان - مع أن ما سبق ذكره من كلام شيخ الإسلام فيه الكفاية لمن أراد الهداية- على ما تقدم ذكره وبيانه من صفات الطائفة المنصورة، وحتى تدرك يا أخا الإسلام أن الصفات السابق ذكرها تنطبق وبلا شك على جماعات المجاهدين في سبيل الله، الملتزمين منهج نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم وصحبه رضوان الله عليهم، الداعي الى التوحيد بشموليته والجهاد لأجل نشره والتمكين له في الأرض، وأن هذه العصب هي أقرب الناس إلى الحق المبين، الذي جاء به سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، أقول: لمزيد إيضاح وبيان دعونا نبحر سوية لنتعرف عن قرب عن حال هؤلاء الذين ذكرنا، وكيف أن الصفات السابق ذكرها تنطبق عليهم والله المستعان.

أولاً: لقد أعلن رواد المجاهدين ودعاتهم وقادتهم تبرؤهم من طواغيت العرب والعجم، أعلنوها مدوية لا مرية فيها، غير آبهين بسطوتهم وبهرجهم وآلتهم العسكرية والإعلامية كما أعلنها من قبل أبوهم إبراهيم عليه السلام: } إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ... { (الممتحنة: ٤)

نعم ! لقد كفروا بكل الطواغيت التي تعبد من دون الله، فإما أن تعلوا شريعة الله وتسود البشرية، أو يفنوا دون هذا المقصد.

ثانياً لقد حمل أبناء العصب الجهادية أرواحهم على أكفهم، ومضوا على بركة الله، يقاتلون على أمره كل طاغوت جبان، ومرتد رعديد، وحاديهم في الطريق الطويل الوعر قوله صلى الله عليه وسلم: (لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة) .

نعم ! إنهم ورثة محمد صلى الله عليه وسلم، قاموا يذودون عن حمى التوحيد، عندما تراجع غيرهم وانتكس، ورضي بمجالس البرلمانات الشركية، لتكون منبر جهاده وإلى الله المشتكى.

لقد شاهد أبناء المسلمين، وأبصروا تلك المفاخر التي سطرها الأماجد من أبناء هذه الطائفة المباركة، عندما ارتطموا بطائرات العزّ والفخار بأبراج مملكة الجاهلية في الأرض، وأحالوها إلى ركام.

وأبصروا وما زالوا يبصرون، تلك المفاخر الجليلة، التي يقدمها أبناء التوحيد الغيارى هنا في إمارة أفغانستان بقيادة أمير المؤمنين الملا محمد عمر حفظه الله، وهناك في بلاد الرافدين "العراق"، ممثلين بدولة العراق الإسلامية وأميرها أبي عمر البغدادي، وأنصار السنة، وغيرهم من كتائب الحق التي تقاتل على أمر الله في مشارق الأرض ومغاربها.

ثالثاً إن الناظر في أحوال الجماعات الجهادية المقاتلة على أمر الله يدرك كل الإدراك مدى المعاناة التي يعانونها، وفداحة تلك الغربة غربة هذا الدين في آخر الزمان التي يقاسونها، وقد جفاهم الناس وعادتهم الجاهلية، وخذلهم القريب وناوأهم البعيد، ولكن حسبهم والحالة تلك قوله صلى الله عليه وسلم: (بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ غريباً فطوبى للغرباء) .

قال الإمام القرطبي رحمه الله: إن قرنه إنما فضل لأنهم كانوا غرباء في إيمانهم لكثرة الكفار وصبرهم على أذاهم وتمسكهم بدينهم، وإن أواخر هذه الأمة إذا أقاموا الدين وتمسكوا به وصبروا على طاعة ربهم في حين ظهور الشر والفسق والهرج والمعاصي والكبائر كانوا عند ذلك أيضا غرباء، وزكت أعمالهم في ذلك الوقت كما زكت أعمال أوائلهم، وما يشهد لهذا قوله عليه السلام: "بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ فطوبى للغرباء ") .

نعم لقد غدا ورثة الحق غرباء مطاردين، قلما يجدون على الحق معيناً، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

رابعاً: لقد غدا أبناء الطوائف المجاهدة قدوة خير يقتدى بهم في الثبات على المبادئ، والصبر على القيم التي يحملونها، ليس لشيء إلا لأنها مبادئ حق، آمنوا بها وأيقنوا أنهم يمثلون بها الإسلام الخالد.

وتاريخهم مليءٌ بالمواقفَ التي يستعصي على القاعدين عن الجهاد فهمها لأنهم لم يجربوا حلاوة الجهاد، والصبر على مشاقه، فهذا أمير المؤمنين الملا محمد عمر حفظه الله تعالى يضحي بملكه من أجل بضعة عشر رجلا آووا إليه واستنصروه، ليذكرنا بهذا الفعل بالسابقين من عظماء هذه الأمة الميامين، وهذا الشيخ القدوة أسامة بن لادن حفظه الله وهو -غني عن التعريف- يضحي بكل ما يملك نصرة لهذا الدين يعيش مع إخوانه في الفيافي والقفار، وهو من هو غنى وجاهاً وشرفاً، وقص على ذلك الشيخ أيمن الظواهري حفظه الله وغيرهم الكثير من أبناء الحركة الجهادية المباركة.

وثباتهم ليس دعوى فارغة ينقصها الدليل، إنما هي أقوال وأعمال صدقها الواقع، وشهد بها الموافق والمخالف ولله الحمد والمنة.

ونحن إذ نتغنى بذكر محاسن هذه العصب المباركة الماجدة الظاهرة على الحق، وندعو المسلمين ونحثهم على اللحاق بركبها الكريم سواء في أفغانستان أو العراق أو الجزائر أو الصومال أو بلاد القوقاز أو اليمن.. فهذا لما عايناه وعاينه كل مسلم منصف ذو بصيرة وسداد رأي، من قوامة منهج هذه الطائفة وشموليته، ورسوخ مفاهيمه وتمسك أتباعه بما كان عليه السلف الصالح من غير تتبع للأهواء، بالإضافة الى تضحيات أبنائه، وثبات رواده وعلى رأسهم أمير المؤمنين الملا محمد عمر وقاهر الصليب الشيخ أبي عبد الله أسامة بن لادن ورجالاته الميامين.

وعلى الرغم من قلة ناصري هذه الطائفة، وندرة سالكي طريقها، وهجر خيرها الكثير الكثير، إلا أن حاديها في الطريق الطويل اللاحب الوعر الموصل إلى مرضات الله، قول أول الغرباء بدينهم، النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك.) . وقوله صلى الله عليه وسلم: (لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة.) .

ورحم الله الإمام ابن القيم إذ يقول محذراً ومنذراً في كتابه القيم مدارج السالكين: (ولما كان طالب الصراط المستقيم طالب أمر أكثر الناس ناكبون عنه، مريداً لسلوك طريق مرافقه فيها في غاية القلة والعزة، والنفوس مجبولة على وحشة التفرد وعلى الأنس بالرفيق... نبه الله سبحانه على الرفيق في هذه الطريق وأنهم هم الذين أنعم الله عليهم

من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا... فأضاف الصراط إلى الرفيق السالكين له وهم الذين أنعم الله عليهم ليزول عن الطالب للهداية وسلوك الصراط وحشة تفرده عن أهل زمانه وبني جنسه, وليعلم أن رفيقه في هذا الصراط هم الذين أنعم الله عليهم, فلا يكترث بمخالفة الناكبين عنه له فإنهم هم الأقلون قدراً وإن كانوا الأكثرين عدداً, كما قال بعض السلف عليك بطريق الحق ولا تستوحش لقلة السالكين, وإياك وطريق الباطل ولا تغتر بكثرة الهالكين, وكلما استوحشت في تفردك فانظر إلى الرفيق السابق واحرص على اللحاق بهم, وغض الطرف عمن سواهم, فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا, وإذا صاحوا بك في طريق سيرك فلا تلتفت إليهم فإنك متى التفت إليهم أخذوك وعاقوك.

وأخيراً: فإن مآثر هذه العصب المجاهدة كثيرة جداً, ونحن لسنا هنا بصدد تتبعها واستقصائها, وإنما أردنا أن نبين لطلاب الحق بعضاً من مفاخر هذه الطائفة المنصورة ليدرك قوامتها, وأنها الطائفة التي تقاتل على أمر الله, والله الهادي إلى سواء السبيل.

السمع والطاعة لأمراء الجماعة

وبعد أن يلتزم أخو التوحيد بالجماعة المسلمة وينضوي تحت لِوائها, ويعمل في صفوفها يتوجب عليه عدة واجبات للوصول إلى الهدف السامي, الذي من أجله شيد بنيان الجماعة وأقيم صرحها الماجد, ومن أهم تلك الواجبات السمع والطاعة لأمراء الجماعة.

لقد قام أمر السموات والأرض على الطاعة المطلقة لأمر فاطرهم سبحانه وتعالى, فكل شيء في هذا الكون يدين لله عز وجل بالسمع والطاعة, وقد أخبر سبحانه وتعالى عن تلك الطاعة بقوله: } ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ { (فصلت:١١)

ولقد شاء الله العلي القدير, أن يبتلي إبليس الشر بآدم عليه السلام فأمره بالسجود له تشريفاً وتكريماً, ولكن الكبر والغرور الإبليسي حال بينه وبين طاعة الأمر الرباني, وأبى إلا المعصية وعدم الطاعة, ليبوء بالخسران الأعظم, وهو الطرد من الرحمة الربانية, واللعنة الأبدية السرمدية.

ولكن فصول الابتلاء والاختبار لم تتوقف, فقد تتابعت حلقاته لتحط بنا على أعتاب ذاك اليوم المشهود, وقد أمر العلي القدير آدم عليه السلام بعدم الأكل من تلك الشجرة, وأبى آدم عليه السلام تحت ضغط تلك الوعود الزائفة الخادعة التي مناهُ بها عدوه اللدود إبليس, إلا أن تسوقه خطاه لتلك الشجرة ليأكل منها وليهبط على إثر تلك المعصية إلى الأرض, ليواصل بنوه من بعده المشوار اللاحب, فوق هذه البسيطة.

وفيما البشرية تغط بسباتها, وتتخبط بوحل جاهليتها العمياء, كانت الأنوار الربانية تسّطع هناك بين رواسي مكة المكرمة, وهي تتنزل آيات بينات تتلى إلى يوم الدين على خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم, وما هي سوى سنوات على تنزل ذاك النور الرباني, حتى أذن العلي القدير لخاتم المرسلين, بالهجرة إلى طيبة الطيبة "المدينة المنورة", لبناء أول مجتمع مسلم فوق ذاك الثرى المبارك, ولتبدأ مسيرة جديدة تنهي عقود الظلام, التي أسدلت بأستارها على المجتمع البشري ككل.

وحتى تستقيم الحياة البشرية في ذاك المجتمع النبوي, كان لا بد من أحكام وتشريعات تنظم حياة ذاك المجتمع الناشئ, الذي لم يعهد أصحابه السمع والطاعة للغير, وذلك للطبيعة العربية التي تأنف الخضوع للغير والانقياد له, فكان لزاماً والحالة تلك وأرحم الراحمين أعلم بمكنونات النفس البشرية, أن يتنزل وحي السماء بتلك الآيات الربانية التي تأمر أتباع محمد صلى الله عليه وسلم, وتحثهم على السمع والطاعة لله ولرسوله, ولمن يتولى أمرهم من العلماء والأمراء, ويربط سبحانه وتعالى بين طاعته وطاعة الرسول وطاعة أولي الأمر من بعده, برباط لا تنفك عراه, ولا تتقطع أواصره, فهو أمر لازم لا يسع الفرد المسلم الخروج من دائرته, إلا أن يرى كفراً بواحاً, أو تحول بينه وبين الأمر المأمور به والمكلف القيام به عدم الاستطاعة.

الأدلة على وجوب السمع والطاعة.

إن السمع والطاعة لمن ولاه اللّه أمراً من أمور هذا الدين, أو حمله شأناً من شؤون المسلمين في محل ولايته, عبادة يتقرب بها العبد إلى ربه, حيث أن طاعة أولي الأمر من المؤمنين هي في الأصل طاعة للّه ولرسوله كما تحدثت بذلك الأحاديث النبوية, وقد أجمع العلماء على وجوب طاعة الأمراء في غير معصية اللّه, ونقل هذا الإجماع القاضي عياض وآخرون كما ذكر ذلك النووي رحمه اللّه, وللمكانة العظيمة للسمع والطاعة في الإسلام, فقد ذكرها ربُّنا العلي القدير في كتابه الكريم, آمراً أهل التوحيد بطاعته وطاعة رسوله وطاعة أُولي الأمر, فقال جلّ ثناؤه: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللّه وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلى اللّه وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}.

قال الإمام القرطبي في تفسيره لهذه الآية الكريمة: لما تقدم إلى الولاة في الآية المتقدمة وبدأ بهم فأمرهم بأداء الأمانات وأن يحكموا بين الناس بالعدل, تقدم في هذه الآية إلى الرعية فأمر بطاعته جل وعز أولاً, وهي امتثال أوامره واجتناب نواهيه, ثم بطاعة رسوله ثانياً فيما أمر به ونهى عنه, ثم بطاعة الأمراء ثالثاً, على قول الجمهور وأبي هريرة وابن عباس وغيرهم.

وقد اختلف أهل العلم في المقصود بأُولي الأمر كما ذكر ذلك الطبري في تفسيره, قال رحمه اللّه: اختلف أهل التأويل في أولي الأمر الذين أمر اللّه عباده بطاعتهم في هذه الآية, فقال بعضهم عن أبي هريرة: هم الأمراء, وقال آخرون هم الفقهاء, وقال آخرون هم أهل العلم والدين والعقل.

ثم رجح رحمه اللّه أن يكونوا هم الأمراء والولاة, لصحة الأخبار عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بالأمر بطاعة الأئمة والولاة فيما كان للّه طاعة و للمسلمين مصلحة, وهذا ما ذهب إليه جماهير الفقهاء والمفسرين من السلف والخلف كما ذكر ذلك النووي رحمه اللّه.

وقال الجصاص في أحكام القرآن بعد أن ساق بعضاً من أقوال أهل العلم في ذلك: ويجوز أن يكونوا جميعاً - أي أُولو الفقه والعلم وأمراء السرايا - مرادين بالآية, لأن الاسم يتناولهم جميعاً, لأن الأمراء يلون أمر تدبير الجيوش والسرايا وقتال العدو, والعلماء يلون حفظ الشريعة وما يجوز مما لا يجوز, فأَمَرَ الناس بطاعتهم والقبول منهم.

أما الأحاديث التي تتحدث عن وجوب السمع والطاعة لمن تولى أمراً من أمورالمسلمين, أو شأناً من شؤونهم فهي في الهدي النبوي من الكثرة بمكان, فلم يهمل باني أول مجتمع مسلم هذا الأمر - أي أمر السمع والطاعة - وذلك لخطورة عواقب معصية الإمام أو الأمير أو من تولى أمراً من أمور المسلمين, فقد قال حاثاً أتباعه صلى اللّه عليه وسلم على السمع والطاعة: من أطاعني فقد أطاع اللّه, ومن عصاني فقد عصى اللّه, ومن يطع الأمير فقد اطاعني, ومن يعص الأمير فقد عصاني, وإنما الإمام جُنّة يقاتل من ورائه ويُتقى به, فإن أمر بتقوى اللّه وعدل فإن له بذلك أجرا, وإن قال بغيره فإن عليه منه.

وقال صلى اللّه عليه وسلم: اسمعوا وأطيعوا, وإن أمر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة.

وعن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال: أوصاني خليلي أن أسمع وأطيع, وإن كان عبداً حبشياً مُجَدّع الأطراف.

وقال صلى اللّه عليه وسلم: السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره, ما لم يؤمر بمعصية, فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة.

قال الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم: وأما السمع والطاعة لولاة أمور المسلمين, ففيها سعادة الدنيا, وبها تنظيم مصالح العباد في معاشهم, وبها يستعينون على إظهار دينهم وطاعة ربهم, كما قال علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه: إن الناس لا يصلحهم إلا إمام بر أو فاجر, إن كان فاجراً عبَدَ المؤمنُ فيها ربه, وحمل الفاجر فيها إلى أجله.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: فطاعة ولاة الأمور واجبة لأمر اللّه بطاعتهم, فمن أطاع اللّه ورسوله بطاعة ولاة الأمر للّه فأجره على اللّه, ومن كان لا يطيعهم إلا لما يأخذه من الولاية والمال فإن أعطوه أطاعهم, وإن منعوه عصاهم: فماله في الآخرة من خلاق. وقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي اللّه عنه عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال: "ثلاثة لا يكلمهم اللّه يوم القيامة, ولا ينظر إليهم, ولا يزكيهم, ولهم عذاب أليم, رجل على فضل ماء بالفلاة يمنعه من ابن السبيل, ورجل بايع رجلا بسلعة بعد العصر فحلف له باللّه لأخذها بكذا وكذا فصدقه وهو غير ذلك, ورجل بايع إماماً لا يبايعه إلا لدنيا, فإن أعطاه منها وفى, وإن لم يعطه منها لم يَفِ ".

وبهذه النصوص وغيرها الكثير مما لا يسع المجال بسردها، يتبين أن طاعة الأُمراء واجب شرعي، وهي عبادة يتقرب بها العبد إلى ربه، وينال بها المنزلة العالية الرفيعة، ويساعد بتلك الطاعة على عدم الفرقة في الدين واختلاف كلمة المسلمين، ويجب على الأخ المجاهد الساعي إلى إقامة دين الله في الأرض أن يستشعر حلاوة تلك العبادة وهو يلبي أمر أميره، ويعلم أنه يروح ويغدو في طاعة ملاك القلوب.

فصل: اعلم أن الطاعة التي نتكلم عنها إنما هي الطاعة في المعروف، وفي حدود ما أمر الله عز وجل وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم، وأن يكون ذلك في استطاعة المأمور، أما خلاف ذلك فلا سمعٌ ولا طاعة، كما قرر ذلك أهل العلم وتكلمت عنه الأحاديث، وهذا بيان ذلك:

فقد ثبت في صحيح البخاري وغيره عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال: بعث النبي صلى الله عليه وسلم سرية واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار، وأمرهم أن يطيعوه فغضب فقال: أليس قد أمركم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تطيعوني ؟ قالوا: بلى، قال: فاجمعوا لي حطباً، فجمعوا فقال: أوقدوا ناراً فأوقدوه، فقال: ادخلوها، فهمُّوا وجعل بعضهم يمسك بعضاً، ويقولون فررنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم من النار فما زالوا حتى خمدت النار، فسكن غضبه فبلغ النبي صلى الله عليه فقال: لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة إنما الطاعة في المعروف.

قال الخطابي رحمه الله: هذا يدل على أن طاعة الولاة لا تجب إلا في المعروف كالخروج في البعث إذا أمر الولاة، والنفوذ لهم في الأمور التي هي الطاعات ومصالح المسلمين، فأما ما كان منها معصية كقتل النفس المحرمة وما أشبهه فلا طاعة لهم في ذلك، إنما الطاعة في المعروف لا في المنكر، والمراد بالمعروف ما كان من الأمور المعروفة في الشرع، وهذا تقييد لما أطلق في الأحاديث المطلقة القاضية بطاعة أولي الأمر على العموم.

وقال العلامة ابن القيم رحمه الله: وفي الحديث دليل أن على من أطاع ولاة الأمر في معصية الله كان عاصياً، وأن ذلك لا يمهد له عذراً عند الله، بل إثم المعصية لاحق له، وإن كان لولا الأمر لم يرتكبها، وعلى هذا يدل الحديث، وبالله التوفيق.

وعليه فالواجب على كل مأمور أن لا يطيع في معصية الله، وأن لا يرضي الناس بسخط الله، وهذا الذي يطيع في المعصية لا عذر له أمام الله، بل هو آثمٌ بفعله فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

مسألة مهمة: اعلم أن للأمير حق السمع والطاعة في المسائل الاجتهادية، حيث لا نص ثابت مقرر في المسألة، كالجمع في الصلاة وعدمه وغير ذلك من الأمور التي يستساغ فيها الخلاف، كما قال شارح العقيدة الطحاوية: دلت نصوص الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة أن ولي الأمر، وإمام الصلاة والحاكم وأمير الحرب وعامل الصدقة يطاع في مواضع الاجتهاد، وليس عليه أن يطيع أتباعه في موارد الاجتهاد، بل عليهم طاعته في ذلك، وترك رأيهم لرأيه، فإن مصلحة الجماعة والائتلاف، ومفسدة الفرقة والاختلاف، أعظم من أمر المسائل الجزئية .

وكذلك له السمع والطاعة في تدبير شؤون الحرب، وما يصلح فيها وما لا يصلح، ومتى يكون الكر ومتى يكون الفر، ومتى التقدم، ومتى الانحياز والانسحاب، وغير ذلك من فنون القتال التي تعرف بالدربة والتجربة والممارسة.

ولو لم يكن له الأمر في ذلك لغدا الأمر كما قال الإمام الجويني في غياث الأمم: ولو لم يتعين اتباع الإمام في مسائل التحري لما تأتّى فصل الخصومات في المجتهَدات، ولاستمسك كل خصم بمذهبه ومطلبه، وبقي الخصمان في مجال خلاف الفقهاء مرتبكين في خصومات لا تنقطع.

فائدة: وحقيقة السمع والطاعة لا تظهر غالباً إلا في الأمر الذي يكره الفرد القيام به ويشق عليه فعله، ولا يتوافق مع هواه، ولا يتماشى مع مطلبه ومناه، لهذا وذاك فقد وردت الأحاديث التي تأمر بالسمع والطاعة على جميع الأحوال وخاصة في ما يكره القيام به، فقد روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: عليك السمع والطاعة في عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك وأثرة عليك.

قال النووي رحمه الله في شرحه لمسلم: قال العلماء: معناه تجب طاعة ولاة الأمور فيما يشق وتكرهه النفوس وغيره مما ليس بمعصية، فإن كانت لمعصية فلا سمع ولا طاعة.

والأثرة هي: الاستئثار والاختصاص بأمور الدنيا عليكم، أي اسمعوا وأطيعوا وإن اختص الأمراء بالدنيا ولم يوصلوكم حقكم مما عندهم، وهذه الأحاديث في السمع والطاعة في جميع الأحوال، وسببها اجتماع كلمة المسلمين، فإن الخلاف سبب لفساد أحوالهم في دينهم ودنياهم.

فالزم السمع والطاعة في اليسر كما هو في العسر، وفي المكره كما هو في المنشط، حتى تنال رضاه، وكن كما قال عليه

الصلاة والسلام: طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه مغبرة قدماه إن كان في الحراسة كان في الحراسة وإن كان في الساقة كان في الساقة وإن استأذن لم يؤذن له وإن شفع لم يشفع.

فصل: عواقب وتبعات معصية الأمير:

قصَّ علينا العلي القدير في كتابه الكريم، جانباً من تبعات معصية الأمير، وبيَّن سبحانه وتعالى ما حلَّ بعباده المؤمنين، عندما عصى بعضهم أوامر سيد البشرية صلى الله عليه وسلم، وكيف انقلب النصر الساحق إلى هزيمة بسبب معصية الرماة، وتركهم لمواقعهم التي أمرهم الرسول عليه الصلاة والسلام بلزومها، مهما كانت نتيجة المعركة: " لا تبرحوا مكانكم ! إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا لا تعينونا"، وهذا الذي كان إنما هو عاقبة معصية الرماة، قال سبحانه وتعالى واصفاً ذلك في المعركة الخالدة " غزوة أحد ": { وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ }.

قال الإمام الجصاص في أحكام القرآن: فيه إخبار بتقدم وعد الله تعالى لهم بالنصر ما لم يتنازعوا ويختلفوا، فكان كما أخبر به يوم أحد ظهروا على عدوهم وهزموهم وقتلوا منهم، وقد كان عليه الصلاة والسلام أمر الرماة بالمقام في موضع وأن لا يبرحوا، فعصوا وخلوا مواضعهم حين رأوا هزيمة المشركين وظنوا أنه لم يبق لهم باقية واختلفوا وتنازعوا، فحمل عليهم خالد من ورائهم فقتلوا من المسلمين من قتلوا بتركهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعصيانهم.

وفي ذلك دليل على صحة نبوة النبي صلى الله عليه وسلم، لأنهم وجدوا موعود الله كما وعد قبل العصيان، فلما عصوا وكلوا إلى أنفسهم.

وفيه دليل على أن النصر من الله في جهاد العدو مضمون باتباع أمره والاجتهاد في طاعته، وعلى هذا جرت عادة الله تعالى للمسلمين في نصرهم على أعدائهم.

وفي هذه الواقعة عبرةٌ وعظةٌ لكل مسلم من المخالفة والعصيان، حيث أن معصية الفرد الواحد قد تكون سبباً رئيساً في هزيمة المسلمين، وفي هذا المعنى يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح: وفيه شؤم ارتكاب النهي وأنه يعم ضرره من لم يقع منه، كما قال تعالى: { وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً }، وأن من آثر دنياه أضر بآخرته ولم تحصل له دنياه.

فصل: توقير الأمير:

إن من الأمور التي يجب أن يدركها أخو الإسلام العازم على إعادة صرح الخلافة الراشدة، والذي ارتضى لنفسه أن يكون لبنة مباركة في بناء الجماعة المسلمة التي تعمل على إقامة المجتمع المسلم، أن الأمير هو ظل الله في الأرض، وأن إكرام الأمير وتوقيره وتبجيله والدعاء له بالخير، أمرٌ محمود بل جاءت الأحاديث النبوية تحث عليه وتأمر به، فقد روى مسلم في صحيحه عن عوف بن مالك أنه قال: قتل رجل من حمير رجلاً من العدو، فأراد سلبه فمنعه خالد بن الوليد رضي الله عنه وكان والياً عليهم، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم عوف بن مالك فأخبره، فقال لخالد ما منعك أن تعطيه سلبه ؟ قال: استكثرته يا رسول الله، قال: ادفعه إليه، فمر خالد بعوف فجر بردائه، ثم قال: هل أنجزت ما ذكرت لك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟، فسمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستغضب، فقال: لا تعطه يا خالد لا تعطه يا خالد، هل أنتم تاركون لي أمرائي ؟ إنما مثلكم ومثلهم كمثل رجل استرعي إبلاً أو غنماً فرعاها، ثم تحين سقيها فأوردها حوضاً، فشربت صَفوه، وتركت كدره، فَصفوهُ لكم وكدره عليهم.

في هذا الحديث دلالة واضحة على إكرام النبي صلى الله عليه وسلم لأمرائه، وأنه لا يرضى بحال من الأحوال أن يهان أميره أو يزدرى، وتأمل كيف استطاب النبي صلى الله عليه وسلم قلب أميره خالد، وذلك للمصلحة في إكرام الأمراء كما ذكر ذلك النووي في شرحه هذا الحديث.

وأضاف رحمه الله في معنى هذا الحديث: إن الرعية يأخذون صفو الأمور، فتصلهم أعطياتهم بغير نكد، وتبتلى الولاة بمقاساة الأمور، وجمع الأموال على وجوهها، وصرفها في وجوهها، وحفظ الرعية والشفقة عليهم والذب عنهم، وإنصاف بعضهم من بعض، ثم متى وقع علقة أو عتب في بعض ذلك، توجه على الأمراء دون الناس.

وقال شمس الحق آبادي صاحب عون المعبود: الأمراء الذين أمرتهم عليكم منهم خالد بن الوليد تتركونهم بمخالفتهم وعدم متابعتهم وليس صنيعكم هذا لائقاً بشأن الأمراء.

وروى الإمام أحمد وغيره عن معاذ بن جبل عن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم أنه قال: خمس من فعل واحدة منهن كان ضامناً على الله عز وجل من عاد مريضاً أو خرج مع جنازة أو خرج غازياً أو دخل على إمام يريد تعزيره وتوقيره أو قعد في بيته فسلم الناس منه وسلم من الناس.

وقال صلى الله عليه وسلم: السلطان ظل الله في الأرض فمن أكرمه أكرم الله، ومن أهانه أهان الله.

وقال صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي حسنه الألباني عن أبي بكرة: من أكرم سلطان الله تبارك و تعالى في الدنيا أكرمه الله يوم القيامة، و من أهان سلطان الله تبارك وتعالى في الدنيا أهانه الله يوم القيامة. وفي رواية للترمذي: من أهان سلطان الله في الأرض أهانه الله. وقال عنه حديث حسن غريب.

وقال صلى الله عليه وسلم: من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط.

قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: {أَطِيعُوا اللَّه وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ}، قال: قال سهل بن عبد الله رحمه الله: لا يزال الناس بخير ما عَظَّموا السلطان والعلماء، فإذا عظموا هذين أصلحَ الله دنياهم وأخراهم، وإذا استخفوا بهذين أفسد دنياهم وأخراهم.

وقال النووي رحمه الله: وأما إكرام الداخل بالقيام فالذي نختاره أنه مستحب لمن كان فيه فضيلة ظاهرة من علم أو صلاح أو شرف أو ولاية ونحو ذلك، ويكون هذا القيام للبر والإكرام والاحترام، لا للرياء والإعظام، وعلى هذا استمر عمل السلف والخلف.

وإكرام الأمير وذي السلطان يكون بالدعاء له، وعدم التقدم بين يديه فيما يكره وخاصة بحضور العامة، وعدم رفع الصوت أثناء الحديث معه، ومناصحته سراً، وتحين ذلك في الوقت المناسب، وعدم الإنكار عليه علانية خشية خرق هيبته - إلا إذا اقتضى الحال والمصلحة غير ذلك فيجوز الإنكار عليه علانية - وإعانته على ما حمَّله الله من أمانة، وطاعته في غير المعصية، وتنبيهه في حال الشرود والغفلة, وسد خلته عند الهفوة والزلة، وجمع الكلمة عليه، ورد القلوب النافرة إليه، ودفعه عن الظلم بالتي هي أحسن, إلى غير ذلك مما يحمد فعله ويستحسن القيام به.

وإهانة ولي الأمر وانتقاصه قد تكون بأشكال متعددة منها: ذمه أمام الآخرين، وذكر عيوبه، ونشر زلاته، والاستخفاف به، والسخرية منه، وعدم طاعته فيما يأمر، وتنفير الناس منه، وعدم إعانته على ما ولاه الله من أمر المسلمين, والإنكار عليه علانية, إلى غير ذلك مما يستقبح فعله ويزرى عمله.

وعليه فتوقير الأمير وإجلاله وإكباره، واجبٌ من واجبات المؤمنين، وسنة من سنن المسلمين، والالتزام به دليل صدق على محبة نصرة هذا الدين، وعدم تفرق كلمة المجاهدين، وجديرٌ بكل عامل لهذا الدين أن يعي ما ذكرناه، حتى لا يكون من حيث لا يحتسب سبباً في معصية الرعية لأميرها، مما يترتب على ذلك من المفاسد ما الله بها عليم.

الالتزام بمبادئ وأهداف الجماعة والثبات عليها واختيار الأسلوب الأمثل لتحقيق الغاية.

إن من الأُمور الحتمية التي يجب أن يدرك كنه أمرها كل أخ مسلم، ينطوي تحت لواء الجماعة المسلمة الحقة ويعمل في صفوفها، أن الالتزام بمبادئ الجماعة وأهدافها أمر ضروري لا غنى عنه للاستمرار في أداء الرسالة، والوصول إلى الأهداف المرجوة

التي من أجلها شيد بنيان الجماعة.. وبغير ذلك فالفشل هو مصير العمل المنتظر، وليس فقط الفشل، بل يتعدى الأمر ذلك وتغدوا الجماعة هيكلاً خاوياً متخلخلاً كل فرد فيه قائم على هواه, يعمل بما يمليه عليه فكره واجتهاده, دون التزام بأي مبدأ أو هدف، فتعم بذلك الفوضى وتتضارب الآراء والأطروحات، وينتهي الأمر إما بحل الجماعة أو انقسامها وذهاب ريحها، وإما بطرد الأعضاء الفوضويين.

هذا ويجب أن يدرك رواد الجماعة المسلمة وقوادها، أنهم هم القدوة وأنهم هم مَن يُنظر إليهم بعين الاعتبار, وتعقد الآمال بعد الله على تضحياتهم وتمسكهم بمبادئ الحق التي نادوا بها ودعوا إليها، وكل خلل يحصل في مبادئهم يعود بعواقبه السيئة على الأتباع والأفراد.

فليحذر الرواد والقواد كل الحذر، من الانزلاق في مهاوي التراجع عن المبادئ, والتخلي عن القيم والأهداف، وليعلموا أن هناك أُمة قد عقدت آمالها على صبرهم وتضحياتهم وثباتهم، فبصبرهم يهتدي الناس، وبتضحياتهم يقتدي الناس، وبثباتهم يتأسى الناس...{ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ }، وليتذكر كل داعية ما قاله ذاك الأعرابي جابر بن عامر للإمام أحمد وهو في طريقه الى الخليفة المأمون: يا هذا إنك وافد الناس فلا تكن شؤما عليهم، وإنك رأس الناس اليوم فإياك أن تجيبهم إلى ما يدعونك إليه فيجيبوا، فتحمل أوزارهم يوم القيامة، وإن كنت تحب الله فاصبر على ما أنت فيه، فإنه ما بينك وبين الجنة إلا أن تقتل، وإنك إن لم تقتل تمت، وإن عشت عشت حميدا.

قال أحمد: وكان كلامه مما قوى عزمي على ما أنا فيه من الامتناع من ذلك الذي يدعونني إليه.

قال الإمام عبد الله عزام رحمه الله:- (لقد شاءت إرادة الله أن تحيا الأمم بالنماذج الفذة, وأن تبنى الأمجاد بالقمم, وأن تنصر المبادئ بتضحيات الأفراد الأفذاذ هؤلاء الأفراد يكونون غرباء في مجتمعاتهم ولكن المجتمعات بهم تحفظ وبأمثالهم تنصر وترزق..) .

والثبات على المبادئ والالتزام بالقيم أمام ضغط الواقع المرير, والمغريات التي تنهال على صاحب المبادئ ليس بالأمر السهل، وإنما يحتاج صاحبه الى أن يربي نفسه بالطاعات، ويجتهد عليها بفعل الخيرات، ويتأسى بفعل السابقين من هذه الأمة الكريمة، فقد ضربوا أروع الأمثلة في الثبات على المبادئ، حتى لو كلفهم ذلك بذل الأرواح، وسفك الدماء، والتسلط على الأجساد بالقهر والحبس والتنكيل.

فصل: ويجب على الجماعة أن تربي أفرادها على الولاء لدين الله وليس على الولاء الشخصي لقيادتها، وتربطهم بالمنهج الرباني دون الاتكال على الأشخاص، وتزرع في نفوسهم المبادئ والقيم دون أن تربط تلك المبادئ والقيم بأشخاصهم، فيستقون من نفس النبع الذي استقوا منه، وينهلون من نفس المنهل الصافي الذي نهلوا منه، لأن القلوب بيد الله يقلبها كيف ما يشاء، فقد ينتكس القائد، ويضعف القدوة، ويتراجع المُنظر، وهذا كائن كثير في الأمم والمجتمعات وحتى الجماعات، فالإيمان الراسخ ومعرفة الحق من منبعه وأخذه من مصدره هو صمام الأمان للثبات على المبادئ والقيم مهما تراجع من تراجع، ومهما سقط من سقط، ومهما تخاذل من تخاذل.

فصل: وحتى يكون العامل لهذا الدين على بصيرة من أمر مَن سبق وعمل لهذا الدين في العقود السالفة, وكيف انزلق كثير من رواد ذاك العمل في متاهات التراجع عن القيم والمبادئ التي رفعوها ونادوا بها, نسوق إليه موجزاً مختصراً عن مبادئ جماعة الإخوان المسلمين، حتى يكون على بينة من الأمر، ويدرك أن الثبات على المبادئ واختيار أساليب العمل الناجعة للوصول إلى المبتغى، أمر لازم لا بد منه للاستمرار في المسير الطويل المفضي إلى التمكين لدين الله ومن ثم إقامة المجتمع المسلم المنشود والله الموفق.

فمع غياب فجر الخلافة العثمانية وطمس معالمها وسقوط منارتها, وحتى يملأ ذاك الفراغ الهائل الذي أحدثه غياب خليفة المسلمين, بدأت في الظهور عدة جماعات إسلامية ملأت ساحات العالم الإسلامي, وسرعان ما غدت أحدوثة الشرق والغرب.

وعلى رأس تلك الجماعات كانت جماعة الإخوان المسلمين، التي وضعت نصب عينيها هدفاً منشوداً، وارتكزت على مبادئ وقيم مثلى، ونادت بنظريات وأطروحات سرعان ما عملت جاهدة على تحقيقها ونشرها وترسيخ مفاهيمها في عقول وأذهان أتباعها ومؤيديها.

وحتى يستقيم أمرها، وتصل إلى هدفها المنشود، فقد وضعت نُصب عينيها أمر تحقيق تلك الشعارات الخالدة والمبادئ الماجدة، وسرعان ما علت أبواقها مرددة الإسلام هو الحل، والقرآن هو الدستور، والجهاد هو الطريق، والشهادة هي أغلى الأماني، وإعادة

صرح الخلافة الراشدة واجب شرعي، لا بد من السعي الجاد والعمل الدؤوب لإعادتها إلى واقع البشرية.
ولم يملك الشباب المسلم المتلهف لإعادة أمجاد أمته، سوى اللحاق بركب تلك الجماعة أملاً بالوصول إلى الهدف المنشود، والمقصد المرغوب، بتسويد أمة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم عرش البشرية المغتصب.
ورويداً رويداً وأمام سنن الابتلاء والمحن، وتحت ضربات الواقع المرير، ولمواكبة موكب العصر، بدأت الجماعة بالتخلي عن مبادئها وثوابتها، وغدت تلك الشعارات الماجدة، بالونات جوفاء تتقاذفها أمواج السياسة بمكرها الشيطاني، وتتلاعب بها أحابيل المصلحة، التي غدت إلهاً يعبد من دون الله.
ولم يعد بوسع الإخوان المسلمين وقد سقطوا أمام سنن الابتلاء، وسلموا زمام أمرهم لأهوائهم، وارتضوا الديمقراطية الشركية، وغيرها من الطرق المجانبة للمنهج القويم الذي جاء به الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم طريقاً للوصول إلى سدة الحكم، وإقامة مملكة الله في الأرض.. أقول: لم يعد بوسعهم سوى أن يقتاتوا على فتات الماضي، ويتغنوا بأمجاد الرواد الأوائل رحمهم الله.
وكنتيجة حتمية وقد تكشفت الحقائق بعد أن تخلوا عن مبادئهم وثوابتهم، فقد بدأ الكثير من الشباب المسلم - والعبد الفقير أحدهم- يجول ببصره في الآفاق، باحثاً ومتأملاً لعله يظفر بتلك العصب التي لا يجد اليأس إليها سبيلا، ولا يعرف الخور والتراجع والتنازل عن المبادئ والثوابت والقيم إلى قلوب أتباعها طريقاً ولا دربا، وبعد طول فكر وحسن تأمل، اهتدت قلوب الكثير من طلاب الحق، إلى أولئك الصناديد الذين أعيوا أبناء الصليب، واستعصوا على زمر الردة، وثبتوا في وجه العواصف الهوج، وقدموا الغالي والنفيس وجادوا بالمهج والأرواح، ونصروا بالدماء تلك المبادئ الحية والقيم المثلى والثوابت العليا التي آمنوا بها.. ولم تكن تلك الجماعات والعصب التي بذلت وما زالت تبذل سوى العصب والجماعات الجهادية وعلى رأسها تنظيم قاعدة الجهاد ومن سار على نهجه بالبراءة من الطواغيت والجهاد في سبيل الله، هذه العصب التي واصلت مسيرة السلف الصالح، وحاديها وقد خذلها القريب وتخامل عليها البعيد، ورمتها الجاهلية عن قوس واحد قوله سبحانه وتعالى: } وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ{ (آل عمران: ٤٦- ٤٨)
وهكذا وبما سبق ذكره وبيانه يتبين لنا أن الثبات على المبادئ والقيم، أمرٌ متحتم لا غنى للجماعة المسلمة عنه، إن أرادت أن تكون قدوة تحتذى لمريديها وإن هي أرادت الاستمرار في أداء رسالتها الربانية، والقيام بدورها في تشييد الخلافة الإسلامية، وبغير ذلك فإن المصير إلى البوار والفشل والاضمحلال، ويجب أن يعلم أنه من المستحيل بمكان، أن نرى جماعة قائمة بذاتها تتلاعب بها الأفكار وتتقاذفها أمواج الأطروحات والنظريات يمنة ويسرة، لا يقر لها قرار، ولا تثبت على مبدأ، ولا تستقر على رأي، وليس من المعقول في شيء أن تحقق هذه الجماعة والحالة تلك من التخبط، هدفها المنشود الذي سعت إلى الوصول إليه جاهدة، بل إن أمر هذه الجماعة صائرٌ إلى بوار، ومصيرها لا بد إلى اضمحلال ونسيان، وشجرتها لا مفر إلى زوال.
فصل: وحتى تتضح الصورة في أذهان أتباع الحق، ويعلم القاصي والداني من أبناء الحركات الإسلامية أن الثبات على المبادئ واختيار الطريق الأنسب، واستعمال الوسائل الأنجع، فرض لازم لا بد منه لتحقيق الغاية والوصول إلى المقصد، ويعلم القاصي والداني، أن المبادئ أغلى من الأرواح، وأن القيم أثمن من الدماء، وأن الثبات على الطريق الدامي الوعر، أمرٌ دونه العرق والمطاردات، والمحن والابتلاءات، وأن تبليغ الدعوات ليس برحلة وادعة، وليس بلعبة مسلية، أو نزهة شاعرية مسالمة أقول: حتى تتضح الصورة في أذهان طلاب الحق، كان لزاماً علينا أن نتطرق للحديث عن دعوة ومنهج تنظيم "قاعدة الجهاد" الذي إذا ما ترامى اسمه إلى آذان السامع، حتى يزور مخيلته ذاك الثبات الفريد على المبادئ رغم المحن، والمنهج القويم المسدد بتوفيق الله، وحسن اختيار الوسائل الأنجع في تحقيق الغاية، فقد سلك مؤسس هذا الدعوة الخيِّرة، وحامل لوائها الشيخ المجاهد أسامة بن لادن مسلكاً سليماً، واتخذ استراتيجية عمل موصلة لتحقيق الغاية بعون الله وتوفيقه، ويتضح ذلك فيما يلي:
فقد استطاع بفضل الله وكرمه وبمعية إخوانه أن يحشد جموع أبناء الإسلام، ويجيش أتباع محمد صلى الله عليه وسلم ويرصهم صفاً واحداً في مواجهة أتباع الصليب من أبناء الروم، ويسر الله ونجح في مسعاه أيما نجاح، ولم تكن تلك الدعوة الكريمة، وذاك المبدأ الفريد الذي قامت عليه تلك الدعوة الطيبة، سوى حصيلة تجارب دامية لأبناء الحركات الجهادية مع أنظمة الردة المتسلطة على رقاب أبناء الإسلام.
وحيث أن الشجى يبعث على الشجى فلا بأس بالعودة إلى الوراء قليلاً، حتى يدرك قارئ هذه الكلمات قوامة الأسلوب الذي

اتخذ لتحقيق الغاية. وأن هذا الاختيار الاستراتيجي لم يأت من عبث ولم يتولد من فراغ, وإنما هو حصيلة تجارب دامية رسم معالمها الأولى, وخط فصولها الدامية أبناء الحركات الجهادية لا سيما في سوريا الشام, وفوق أرض الكنانة " مصر", حيث معقل ذاك الخير العظيم, الذي فجر ينبوعه الدافق الشهيد المعلم سيد قطب وتابع الأمر من بعده الدكتور الشهيد صالح سرية, لتواصل جماعتا الجهاد والجماعة الإسلامية المشوار اللاحب من بعدهما مقتفية أثر خطاهم المبارك, وليتبين للكثير من أبنائهما - بعد ثلاثة عقود من البذل والعطاء والمهج والدماء - وعلى رأسهم عبقري الحركات الجهادية الشيخ المجاهد أيمن الظواهري أن جهاد أنظمة الردة, وإن كان من أوجب الواجبات وأعظم القربات, إلا أن الثمرة المرجوة من ذاك الجهاد المبارك صعبة المنال, وذلك لأسباب عدة نلخصها في عدة نقاط حتى يسهل على القارئ الكريم فهمها:-

أولاً:- إن مملكة الشيطان في الأرض " أمريكا " هي السند الحقيقي الفاعل لتلك الأنظمة المرتدة الجاثمة على صدور أبناء التوحيد في مشارق الأرض ومغاربها, تمدها بالمال وتدعمها بالخبرات والرجال, لتحول بينها وبين السقوط في مهاوي الردى ومزابل التاريخ واللعنات.

ثانياً:- إن من الصعوبة بمكان توحيد كلمة أبناء التوحيد, وتجميع صفوفهم ورصهم في صعيد واحد, وشحذ طاقاتهم إذ لم يكن العدو من الخارج, أي بمعنى كافر أصلي كاليهود والنصارى, لا يختلف اثنان من أمة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم على كفرهم وفرضية قتالهم إلا من ختم الله على قلبه وأعمى بصيرته والعياذ بالله.

ثالثاً:- إن فهم عوام المسلمين قاصر عن الإحاطة بأحكام أهل الردة, ويكاد يستحيل تجييشهم وإقناعهم بكفر تلك الدمى المرتدة وكفر أعوانها, وخاصة إذا علمنا أن أولئك الطواغيت قد أحاطوا أنفسهم بحزام واقٍ من علماء التسول وفقهاء الكروش, وهؤلاء المرتزقة لهم قدرة فائقة على تمييع النصوص, وصرفها عن وجهتها ومقصدها الحقيقي, وتفريغها من مضمونها الصحيح, لتتلاءم مع ما يملي عليهم ويأمرهم به أربابهم, ولإضفاء الشرعية على حكمهم البائس الحقير.

وبالمقابل تبين أن استهداف علوج الصليب, وإخوانهم المغضوب عليهم "اليهود ", قد أثمر وأزهر وأتى أكله, وغدت الثمرة المرجوة من الجهاد على وشك النضوج, وقد اقترب قطفها بعون الله, ويرجع ذلك لأسباب عدة يمكن تلخيصها بثلاث نقاط حتى يسهل على القارئ الكريم فهمها:-

أولاً:- إن استهداف الكافر الأصلي المعلوم كفره من الدين بالضرورة, أدى إلى تجييش أبناء الإسلام, وتوحيد كلمتهم وإزالة الغبش عن أفهامهم, ورصهم صفاً واحداً في مواجهة الحملة الصليبية الشرسة, التي تستهدف القضاء على الإسلام وقيمه ومبادئه وثوابته في نفوس الأمة المحمدية.

ثانياً:- إن استهداف الصليبين وإخوان القردة والخنازير, أدى إلى تعرية أنظمة الحكم المرتدة وكشف أستار عورتها, أمام العوام من المسلمين, وخاصة بعد ظهور تلك الدمى المرتدة على شاشات التلفاز, وقد لفها الحزن وعلا نباحها وعويلها وهم ينافحون عن أسيادهم اليهود والنصارى, بعد كل عملية مباركة لأبناء التوحيد تستهدف مصالح وأرواح أربابهم النجسة.

ثالثاً:- إسقاط شرعية علماء السلاطين فقهاء التسول, وفضحهم وكشف أستارهم, وإظهار حقيقتهم لعوام المسلمين, وخاصة بعد ظهورهم على شاشات التلفاز عقب كل عملية مباركة للمجاهدين تستهدف أسيادهم من يهود ونصارى, وقد تلفعوا بالسواد حَزناً, وعلا صوتهم بالترحم على جيف قتلى أبناء الصليب, ولم يكتفوا بذلك بل تمادوا في غيهم وضلالهم, وراحوا يكيلون السباب واللعنات على ورثة محمد صلى الله عليه وسلم بل ويشهدون لهم بالنار, ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وبهذا يتضح قوامة االنهج الذي سلكه الشيخ أسامة حفظه الله والذي من أعظم مبادئه قتال أبناء الضلالة " النصارى ", وإخوان المغضوب عليهم " اليهود", دون الغفلة عن أذنابهم المرتدين.

ولمن أراد أن يستزيد فتاريخ المسلمين الماضي والحاضر حافل بالتجارب, التي تؤكد قوامة وصحة هذا المنهج, وما تجربة الإمام الشهيد عبد الله عزام في أفغانستان عنا ببعيد..} إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ { (ق: ٣٧)

الجهاد في سبيل الله الوسيلة المفضية إلى التمكين.

الجهاد: هو الركن الركين والأساس المتين, والجذور الضاربة لدوحة الإسلام الخالدة, وهو كما شبهه الضحوك القتال صلى الله عليه وسلم: ذروة سنام هذا الدين, وأحب الأعمال إلى الله وأفضلها بل لا يسبقه عمل من الأعمال إن تعين.
الجهاد: عنوان عزة المسلمين, ودليل وجودهم واليد الطولى التي يخضب بها جبروت المعتدين, ويقتلع بها جذور الصناديد المتألهين, ويد الرحمة الإلهية التي تستنقذ النفوس الضائعة التائهة الشاردة في جاهليتها السادرة في غيها وترشدها إلى الحق المبين, بعد استنقاذها من عبودية البشر, وتأخذ بيدها وناصيتها إلى طريق الفلاح والهداية والرشاد.
الجهاد: هو جوهرة الإسلام البهية, به تحيا الأمة وتسمو وتعلو وترتقي إلى المعالي, وبغير ذلك فهي موات لا حراك فيها, تنهشها الذئاب العوادي وتمزقها الكلاب الضواري.
الجهاد: هو سير الأنبياء والرسل وديدن أتباعهم, وشيمة ورثتهم وعنوان من سار على طريقهم واقتفى أثرهم وإلى يوم الدين.
الجهاد: كما وصفه الإمام الشهيد عبد الله عزام: ينبوع العزة, ومعين الكرامة ومورد الصفاء ومصدر صقل النفس البشرية وارتفاعها عن أوهاقها.
وحيث ما ذكر الجهاد ذكر إمامه الأول, ودليل المجاهدين وهاديهم إلى الحق المبين محمد صلى الله عليه وسلم المدرسة الجهادية الحقة, التي تخرج من بين ثنايا أورقتها خير من دبَّ فوق هذه البسيطة - بعد معشر الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم - ذاك الجيل الرباني الفريد, الذي جاهد في الله حق جهاده, فخضب شوكة عُبَّاد نار كسرى, ووأد أحلام صليب قيصر, وأذل الله به ملوك الهند, ونكَّس رايات أحفاد بوذا, واعتلى عرش البشرية بجهده وجهاده, وبأسه وتضحياته, وعدله وإقدامه, ونحن إن شاء الله على عهدهم ماضون, ولسنتهم مقتفون, ولآثارهم متبعون, وعلى طريقهم سائرون, حتى نعتلي عرش البشرية, ونشيد خلافة الله في الأرض أو نهلك دون هذا المقصد.

ونحن قومٌ لا توسط عندنا لنا الصدر دون العالمين أو القبر

فضل الجهاد والاستشهاد في سبيل الله.
إن الحديث عن حادي الجهاد والاستشهاد يبعث في وجدان النفس البشرية التي تذوقت حلاوته ذكريات وأشجاناً, يصعب على القلم أن يترجم حرارتها إلى عبارات وكلمات فوق هذه القراطيس.
فالجهاد سيرة الأنبياء والرسل, وعنوان ورثتهم وأتباعهم, والاستشهاد مُنى نفس النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وسلم, ورغبة ومطمع أصحابه الميامين رضوان الله عليهم, وغاية السلف الصالح ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم وإلى يوم الدين.
ولقد امتلأ الذكر الحكيم بذاك النور الإلهي الذي يؤجج نفس المؤمن شوقاً للقيام بفريضة الجهاد, والتعرض لمواطن القتل والاستشهاد, طمعاً ورغبةً بالنزول ضيوفاً على موائد الرحمن هناك في عوالي الجنان.
فقد قال جل جلاله حاثاً عباده على القتل والقتال, واعداً إياهم بجزيل الثواب وحسن المآب: } إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ { (التوبة: ١١١)
وقال جل وعلا في موضع آخر, مثنياً ومادحاً أولئك الرجال الأفذاذ الصناديد من ورثة الحق, النافرين للذود عن حمى التوحيد, مفضلاً إياهم على المؤمنين القاعدين مغفرةً وأجراً عظيما: } لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا { (النساء: ٩٥ - ٩٦)
وقال سبحانه وتعالى في موطن آخر, ولكن هذه المرة محذراً ومتوعداً أولئك النفر الذين يستحبون الحياة الدنيا وزخرفها على الآخرة, ويقدمون شهواتهم وأمانيهم وحب الأوطان والقوم والعشيرة, على حب الله ورسوله, والجهاد في سبيل الله, ولا يرضون إلا الدون, قال فيهم متوعداً ومحذرا: } قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ

اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ { (التوبة:٢٤)

ولم يهمل النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم, وهو المدرسة الجهادية الحقة, الذي غزا بنفسه الشريفة ما يربوا على ثمانية وعشرين غزوة, حتى كسرت رباعيته وشق وجهه الطاهر, وهو الذي تمنى أن يغزو ثم يقتل, ثم يغزو فيقتل, ثم يغزو فيقتل.. أقول: لم يهمل أمر الجهاد, ولم يتوان عن ذكره والتحريض عليه والترغيب به, حتى أتاه اليقين وهو يردد: (أنفذوا بعث أسامة) بأبي هو وأمي صلى الله عليه وسلم.

وحقيقة إن المقام لا يتسع لسرد تلك الأحاديث الجليلة والتعليق عليها لكثرتها, ولكن نقتطف من ذاك البستان النبوي الزاخر, بعضاً من تلك الزهرات اليانعة, لعلها تشحذ الهمم, وتؤجج العواطف, وتوقد شعلة الخير في قلوب أبناء التوحيد عشاق الشهادة, فيطيروا على أجنحة الشوق زرافات ووحدانا, ملبين الداعي النبوي الشريف إلى ساحات النزال, ويدركوا أن هذا الدين وأن إقامة المجتمع المسلم يحتاج إلى الدماء والبذل والعطاء.

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه, أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (أي الناس أفضل ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله, قالوا: ثم من؟ قال: مؤمن في شعب من الشعاب يتقي الله ويدع الناس من شره) .

قال ابن إسحاق بن أبي فروة : (أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم وأهل الجهاد فأما أهل العلم فدلوا الناس على ما جاءت به الرسل , وأما أهل الجهاد فجاهدوا على ما جاءت به الرسل.)

وقال ابن دقيق العيد: (القياس يقتضي أن يكون الجهاد أفضل الأعمال التي هي وسائل, لأن الجهاد وسيلة إلى إعلان الدين ونشره وإخماد الكفر ودحضه ففضيلته بحسب فضيلة ذلك والله أعلم.) .

وقال الحافظ: (.. وهذه فضيلة ظاهرة للمجاهد في سبيل الله تقتضي ألا يعدل الجهاد شيء من الأعمال.) .

وعن أنس رضي الله عنه, عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما من أحد يدخل الجنة, يحب أن يرجع إلى الدنيا, وأن له ما على الأرض من شيء, غير الشهيد, فإنه يتمنى أن يرجع فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة.) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: دلني على عمل يعدل الجهاد قال: لا أجده, قال: (هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك, فتقوم ولا تفتر, وتصوم ولا تفطر ؟). قال: ومن يستطيع ذلك) .

وفي الحديث الآخر الذي رواه البخاري قال صلى الله عليه وسلم: (إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله, ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض, فإذا سألتم الله فسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة - أراه قال - وفوقه عرش الرحمن, ومنه تفجر أنهار الجنة) .

وعن مسروق قال: سألنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن هذه الآية: { ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون } قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك فقال:

(أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش, تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل فاطلع إليهم ربهم إطلاعه فقال: هل تشتهون شيئا ؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ؟ ففعل بهم ذلك ثلاث مرات, فلما رأوا أنه لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: يا رب! نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى, فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا) .

وعن المقدام بن معدي كرب الكندي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن للشهيد عند الله عز وجل قال الحكم ست خصال, أن يغفر له في أول دفعة من دمه, ويرى مقعده من الجنة, ويحلى حلة الإيمان ويزوج من الحور العين, ويجار من عذاب القبر ويأمن من الفزع الأكبر, ويوضع على رأسه تاج الوقار الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها, ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين, ويشفع في سبعين إنسانا من أقاربه) .

نعم يا أخا العقيدة والدين, أيها المتعطش لنصرة دين الله, أقدم ولا تبال إن كنت صادقاً وجاداً في نصرة دين الله, جاداً في البحث عن رضى ربك, طامعاً بالدرجات العلى, راغباً في الفردوس الأعلى, حريصاً على الفوز بجنته التي أُعدت للمجاهدين العاملين.

مسوغات الجهاد ودوافعه

لقد شرع العلي القدير الجهاد في سبيله وأمر به وفرضه على عباده الموحدين, وأوجبه على حملة هذا الدين, لأمر عظيم جليل لا غنى عنه لأبناء التوحيد وبغير ذلك - أي بغير الجهاد - لن يعبد الله في الأرض, ولن يُوحَّد وستعلو الجاهلية وتسود البشرية.

وإن المتأمل اليوم في حال أمة التوحيد ليعلم علم اليقين أن ما حلَّ بهذه الأمة الماجدة من ذلة وهوان, وضعف وخور, ومن تسلط لأمم الشرق الملحدة وأمم الغرب الكافرة على رقاب أبناء الإسلام, إنما هو نتيجة حتمية, وجزاء وفاقٌ لهجرهم فريضة الجهاد المتعينة, كما قال تعالى: } إِلاَّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {(التوبة: ٣٩)

قال ابن العربي: (العذاب الأليم هو في الدنيا باستيلاء العدو وبالنار في الآخرة.) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (هذا أيضا خطاب لكل قرن وقد أخبر فيه أنه من نكل عن الجهاد المأمور به عذبه واستبدل به من يقوم بالجهاد وهذا هو الواقع) .

ونحن إذ نحرض على الجهاد في سبيل الله, ونُرغب به وندعو له ونحث أبناء الإسلام على اللحاق بركبه المبارك, فذلك لأسباب كثيرة, ومقاصد عظيمة جليلة منها:

أولاً: حتى يعبد الله وحده لا شريك له وتسود شريعته الغراء.

قال تعالى: } وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ { (الأنفال: ٣٩)

قال سيد قطب رحمه الله في تفسيره: ({وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله}, وهذه حدود الجهاد في سبيل الله في كل زمان لا في ذلك الزمان... ولن تنال البشرية الكرامة التي وهبها لها الله, ولن يتحرر الإنسان في الأرض إلا حين يكون الدين كله لله فلا تكون هناك دينونة لسلطان سواه, ولهذه الغاية الكبرى تقاتل العصبة المؤمنة.اهـ

وقال ابن جرير الطبري في تفسيره لهذه الآية: (فقاتلوهم حتى لا يكون شرك ولا يعبد إلا الله وحده لا شريك له, فيرتفع البلاء عن عباد الله من الأرض وهو الفتنة ويكون الدين كله لله وحتى تكون الطاعة والعبادة كلها لله خالصة دون غيره.)

وبغير الجهاد في سبيل الله بالسيف والسنان ستعم الفتنة, وسيسود الشرك, وستعلو شريعة الجاهلية وستندثر معالم هذا الدين إلا أن يشاء الله.

ثانياً: استجابةً لأمر الله تعالى وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالنفير والجهاد.

قال تعالى: } انْفِرُواْ خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ { (التوبة: ٤١)

قال الإمام الطبري في تفسيره لهذه الآية هناك عشرة أقوال: الأوّل يذكر عن ابن عباس "إنْفِرُوا ثُبَاتٍ": سَرَايَا متفرّقين. الثاني روي عن ابن عباس أيضاً وقتادة: نشاطاً وغير نشاط. الثالث الخفيفُ: الغنيُّ, والثقيلُ: الفقير, قاله مجاهد. الرابع الخفيف: الشاب, والثقيل: الشيخ, قاله الحسن. الخامس مشاغيل وغير مشاغيل, قاله زيد بن عليّ والحكم بن عتيبة. السادس الثقيل: الذي له عيال, والخفيف: الذي لا عيال له, قاله زيد بن أسلم. السابع, الثقيل: الذي له ضَيْعة يكره أن يدعها, والخفيف الذي لا ضيعة له.

قاله ابن زيد. الثامن الخفاف: الرجال, والثقال: الفرسان, قاله الأوزاعيّ. التاسع الخفاف: الذين يسبقون إلى الحرب كالطليعة وهو مقدّم الجيش, والثقال: الجيش بأسْره. العاشر الخفيف: الشجاع, والثقيل: الجبان, حكاه النقاش. والصحيح في معنى الآية أن الناس أُمِروا جُملةً, أي انفروا خفّت عليكم الحركة أو ثقلت..)

وقال تعالى: } كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّه يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ {(البقرة: ٢١٦)

قال الإمام ابن كثير: (هذا إيجاب من الله تعالى للجهاد على المسلمين أن يكفوا شر الأعداء عن حوزة الإسلام, وقال الزهري: الجهاد واجب على كل أحد غزا أو قعد, فالقاعد عليه إذا استعين أن يعين, وإذا استغيث أن يغيث, وإذا استنفر أن ينفر,

وإن لم يحتج إليه قعد. قلت: ولهذا ثبت في الصحيح " من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو، مات ميتة جاهلية"، وقال عليه السلام يوم الفتح: " لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا ".) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (الإعراض عن الجهاد، فإنه من خصال المنافقين، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من مات ولم يغزُ ولم يحدّث نفسه بالغزو مات على شعبة من نفاق) رواه مسلم. وقد أنزل الله سورة براءة التي تسمى الفاضحة، لأنها فضحت المنافقين..) .

وقد صحَّ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله وحده.) .

واعلم أن الجهاد في هذه الأزمان، فرض عين على كل مسلم، قادر على الجهاد، ولا يعفى من هذا الفرض المتعين، إلا من أعذره الله، واعلم أنه ليس بعد الإيمان بالله أوجب من دفع الصائل، كما قرر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية: وأما قتال الدفع فهو أشد أنواع دفع الصائل عن الحرمة والدين فواجب إجماعا فالعدو الصائل الذي يفسد الدين والدنيا لا شيء أوجب بعد الإيمان من دفعه فلا يشترط له شرط بل يدفع بحسب الإمكان وقد نص على ذلك العلماء أصحابنا وغيرهم..) .

ثالثاً: لرفع الظلم عن المستضعفين في الأرض.

إن من أعظم بواعث الجهاد ومقاصده، رفع الظلم والجور عن المستضعفين المغلوبين على أمرهم، الذين لا يجدون ولياً ولا نصيرا.. هؤلاء المستضعفون العزل الذين يستعبدهم الطواغيت في كل زمان ومكان، من لهم يا ترى غير المجاهدين ليخلصوهم من سوء العذاب، الذي نزل بساحتهم والى الله المشتكى.

قال تعالى:).. وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً { (النساء: ٧٥)

قال الإمام القرطبي في تفسيره: {وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ} حَضٌّ على الجهاد، وهو يتضمّن تخليص المستضعَفين من أيدي الكَفَرة المشركين الذين يسومونهم سوء العذاب، ويفتنونهم عن الدّين، فأوجب تعالى الجهاد لإعلاء كلمته وإظهار دينه واستنقاذ المؤمنين الضّعفاء من عباده، وإن كان في ذلك تَلف النفوس، وتخليص الأسارى واجب على جماعة المسلمين إما بالقتال وإما بالأموال، وذلك أوجب لكونها دون النفوس إذ هي أهون منها، قال مالك: واجب على الناس أن يَفْدُوا الأسارى بجميع أموالهم، وهذا لا خلاف فيه، لقوله عليه السلام: " فُكوا العاني"..) .

وقال ابن النحاس رحمه الله: خرّج ابن عساكر بإسناده عن طلحة بن عبيد الله بن كريز قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: لأن استنقذ رجلاً من المسلمين من أيدي الكفار أحب إلي من جزيرة العرب.) .

وهذا المعتصم سير جيشاً قوامه سبعون ألفاً، لأجل استنقاذ امرأة وقعت أسيرة في أيدي النصارى، وقد لطمها أحد العلوج على وجهها فقالت: "وامعتصماه"..

فأين أنتم يا من تدعون أنكم من ورثة الأنبياء..؟ فها هي سجون أبناء الصليب قد امتلأت بخيرة شباب الأمة، وما زلتم وبإصرار عجيب تُحَرِّمون الجهاد، وتصدون عن سبيل الله، وتثبطون وتخذلون أبناء الإسلام المتعطشين لنصرة هذا الدين، أو ما تخافون أن تصيبكم قارعة من السماء، أو يصيبكم الله بعذاب من عنده، أوما تخافون اللقاء.. ويحكم أفيقوا قبل فوات الأوان، فوالله ما هي سوى أيام معدودة وترحلون ثم يكون الجزاء.

رابعاً: الخوف من عذاب الله وسخطه وغضبه والاستبدال.

يقول الله عزوجل: } إِلاَّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ { (التوبة: ٣٩)

قال الشيخ السعدي في تفسيره: ثم توعدهم على عدم النفير فقال: {إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً} في الدنيا والآخرة، فإن عدم النفير في حال الاستنفار، من كبائر الذنوب الموجبة لأشد العقاب، لما فيه من المضار الشديدة.

فإن المتخلف، قد عصى الله تعالى، وارتكب لنهيه، ولم يساعد على نصر دين الله، ولا ذب عن كتاب الله وشرعه، ولا أعان إخوانه المسلمين على عدوهم، الذي يريد أن يستأصلهم، ويمحق دينهم، وربما اقتدى به غيره من ضعفاء الإيمان، بل ربما فَتَّ في أعضاد من قاموا بجهاد أعداء الله، فحقيق بمن هذا حاله، أن يتوعده الله بالوعيد الشديد، فقال:{إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً}، فإنه تعالى متكفل بنصرة دينه وإعلاء كلمته، فسواء امتثلتم لأمر الله، أو ألقيتموه وراءكم ظهرياً.{وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} لا يعجزه شيء أراده، ولا يغالبه أحد.) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وقوله تعالى: " إن لا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم"، قد يكون العذاب من عنده وقد يكون بأيدي العباد, فإذا ترك الناس الجهاد في سبيل الله، فقد يبتليهم بأن يوقع بينهم العداوة حتى تقع بينهم الفتنة، كما هو الواقع. فإن الناس إذا اشتغلوا بالجهاد في سبيل الله، جمع الله قلوبهم وألف بينهم وجعل بأسهم على عدو الله وعدوهم, وإذا لم ينفروا في سبيل الله عذبهم الله بأن يلبسهم شيعا، ويذيق بعضهم بأس بعض, وكذلك قوله: "ولنذيقهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون"، يدخل في العذاب الأدنى ما يكون بأيدي العباد كما قد فسر بوقعة بدر بعض ما وعد الله به المشركين من العذاب) .

وقال أيضاً رحمه الله: هذا أيضا خطاب لكل قرن وقد أخبر فيه أنه من نكل عن الجهاد المأمور به عذبه واستبدل به من يقوم بالجهاد وهذا هو الواقع.) .

خامساً: لأن الجهاد في سبيل الله بابٌ عظيمٌ من أبواب الجنة, وعبادة جليلة لا تساميها عبادة, ودرجة عالية لا تعلوها درجة.

قال تعالى: } لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً{

قال الشيخ السعدي في تفسيره: أي: لا يستوي مَن جاهد من المؤمنين, بنفسه وماله, ومَنْ لم يخرج للجهاد, ولم يقاتل أعداء الله, ففيه الحث على الخروج للجهاد, والترغيب في ذلك, والترهيب من التكاسل, والقعود عنه, من غير عذر. وأما أهل الضرر, كالمريض, والأعمى, والأعرج, والذي لا يجد ما يتجهز به, فإنهم ليسوا بمنزلة القاعدين, من غير عذر. فمن كان من أولي الضرر, راضياً بقعوده, لا ينوي الخروج في سبيل الله, لولا وجود المانع, ولا يحدث نفسه بذلك, فإنه بمنزلة القاعد لغير عذر.

ثم صرّح تعالى بتفضيل المجاهدين على القاعدين, بالدرجة أي: الرفعة, وهذا تفضيل على وجه الإجمال, ثم صرَّح بذلك على وجه التفصيل, ووعدهم بالمغفرة الصادرة من ربهم والرحمة التي تشتمل على حصول كل خير, واندفاع كل شر. والدرجات التي فصلها النبي صلى الله عليه وسلم بالحديث الثابت عنه في الصحيحين, أن في الجنة مائة درجة, ما بين كل درجتين, كما بين السماء والأرض, أعدها الله للمجاهدين في سبيله.) .

وفي الحديث الصحيح أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (دلني على عمل يعدل الجهاد, قال: (لا أجده!.. هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر وتصوم ولا تفطر؟! قال: ومن يستطيع ذلك؟!)

وقيل يا رسول الله أي الناس أفضل ؟ فقال: صلى الله عليه وسلم: (مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله) . وقال صلى الله عليه وسلم: (لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (الأمر بالجهاد وذكر فضائله في الكتاب والسنة: أكثر من أن يحصر, ولهذا كان أفضل ما تطوع به الإنسان, وكان باتفاق العلماء أفضل من الحج والعمرة, ومن الصلاة التطوع والصوم التطوع, كما دلّ عليه الكتاب والسنة..) .

وقال رحمه الله في فضل الجهاد: (لم يرد في ثواب الأعمال وفضلها مثل ما ورد فيه وهو ظاهر عند الاعتبار فإن نفع الجهاد عام لفاعله ولغيره في الدين والدنيا ومشتمل على جميع أنواع العبادات الباطنة والظاهرة.) .

سادساً: لأن ترك الجهاد في سبيل الله سقوطٌ في الفتنة وعلامة بينة من علامات النفاق.

قال تعالى: }إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ {(التوبة: ٤٥)

قال الأستاذ سيد قطب - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية: وأي شهادة أصدق, وأي حجة أنصع, من شهادة القرآن وحجته, ففي هذه الآيات من سورة براءة قد نص القرآن الكريم على أن الذي لا يلبي نداء الجهاد, ولا يجاهد بماله ونفسه في سبيل إعلاء كلمة الله, وإقامة الدين الذي ارتضاه لنفسه, وتوطيد نظام الحكم المبني على قواعده, فهو في عداد الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر, وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون.اهـ

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في قوله تعالى: {وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كلّه لله}. فمن ترك القتال الذي أمر الله به لئلا تكون فتنة: فهو في الفتنة ساقط بما وقع فيه من ريب قلبه ومرض فؤاده, وتركه ما أمر الله به من الجهاد.) .

وقال رحمه الله في موضع آخر: الإعراض عن الجهاد, فإنه من خصال المنافقين, قال النبي صلى الله عليه وسلم: " من مات ولم يغزُ ولم يحدّث نفسه بالغزو مات على شعبة من نفاق" وقد أنزل الله سورة براءة التي تسمى الفاضحة, لأنها فضحت

المنافقين.) .
فالجهاد في سبيل الله علامة بارزة من علامات صدق الإيمان, وعلامة بينة من علامات حب الله وحب رسوله صلى الله عليه وسلم, وترك الجهاد والتكاسل عنه, علامة واضحة بينة من علامات النفاق, ومرض القلب والسقوط في الفتنة.

الجهاد الطريق الأمثل والسبيل الأقصر لبناء الأُمم وإقامة المجتمعات.

لا يشك شاك ولا يجادل مجادل, أن الأُمم التي قامت في عالم البشرية, وأن الممالك التي شيدها الرواد من البشر - بغض النظر عن معتقداتهم وتصوراتهم وأفكارهم وانتماءاتهم - قد شيدوا ما شيدوا من أُمم وممالك على أكوام من الجثث, وفوق بحور من الدماء, وعلى أتلال من الأشلاء, وسارت مراكب ملكهم, حتى إعتلت قمم المجد على درجات جسر من المهج والأرواح, عبَّدت ذاك الممر الدامي الموصل إلى تصدر هؤلاء الملوك الأوائل عروش أُممهم وصولجان ملكهم... وإن معن النظر في أساليب ونظم ومفاهيم الحياة, التي تحياها الشعوب الغربية النصرانية - بغض النظر عن نظرتنا وتصورنا لهذه المفاهيم, وكوننا نكفر بها ونعاديها ونتبرأ إلى الله منها - ليعلم أن ما وصلت إليه هو نتاج صراع طاحن, استعر حماه بين الكنيسة النصرانية المتألهة, التي استعبدت قطعان النصارى السائبة في تلك البلاد, وبين أولئك النفر الذين كفروا بتعاليم الكنيسة, وتمردوا على سلطانها المقدس, وراحوا يدعون إلى الخروج على تقاليد الكنيسة البابوية, وسلب حقها المقدس المزعوم في سن التشريعات والقوانين, وتفويض أمر التشريع وإصدار القوانين والأحكام إلى الشعب والشعب وحده, وبعد طول قتل وقتال, وتضحيات وأشلاء ودماء, نالت تلك الشعوب البائسة حريتها المزعومة.
نعم ! هذا هو الطريق الدامي الذي سلكته تلك الشعوب النصرانية, حتى شيدت صرح حضارتها البائس المشؤوم, وهذا هو المهر العظيم الباهض الذي جادت به ودفعته تلك الأُمم, لتعتلي قمم الحرية وشوامخ مجدها الزائف, نعم لقد أدركت تلك الأُمم الكافرة الملحدة, وأيقنت أن بناء الأُمم وصناعة الأمجاد, لا يتأتى بغير القتل والقتال, ومقارعة الأبطال في ميادين النزال.
قال شيخنا المجاهد أسامة بن لادن: فالقتال في سبيل الله, جزءٌ لا يتجزأ من ديننا, بل هو ذروة سنام الدين, وكيف يبقى الدين بدون ذروته؟! وهو ضرورةٌ مُلِحّةٌ لحياة أمتنا وعزها وبقائها, وقد صدق عدونا وهو كذوب , إذ قال معلماً أبنائه: (أنت تقاتل, إذن فأنت موجود), هذه هي الحقيقة التي يعلمونها أبناءهم ويرسلون إلينا بعكسها, كما أن القتال مطلقاً ضرورةٌ لبقاء الدول الكبرى, وانظروا التاريخ إن شئتم - بما في ذلك تاريخ أمريكا - فقد أشعَلَتْ عشراتِ الحروب خلال ستة عقود فقط لأن ذلك من أعظم ضروراتها الملحة, فيومَ أن تتخذ الولايات المتحدة الأمريكية قراراً صادقاً بإيقاف الحروب في العالم, فهي تعلم قبل غيرها أن ذلك اليوم هو بداية تفكك ولاياتها وانهيارها - وذلك قادمٌ بإذن الله - فاحذروا كل دعوةٍ لإلقاء السلاح تحت اسم الدعوة للسلام, لأنها في الحقيقة دعوةٌ لتخذيلنا واستسلامنا, ولا يُرَوّجُ لمثل هذه الدعوات إلا جاهلٌ أو منافق.) .
وقال الشيخ المجاهد أبو قتادة الفلسطيني في كتابه القيم " الجهاد والاجتهاد" مفصلاً: إن عقيدة الجهاد في دين الله تعالى قد واجهت من قبل الكفر وأزلامه الهجوم إثر الهجوم, وقد علم أن الكفر بكل صوره لا يمكن زلزلة أركانه وإزالته من مكانه إلا بالقتال, وأنه لا يمكن لدولة من الدول أن ترسخ أركانها وتثبت وجودها إلا بعد دماء وأشلاء, فلا يوجد دولة على ظهر الأرض اليوم وغدا وبالأمس, ذات استقلال ومنعة إلا بعد حروب وحروب, وقتال يأخذ من فلذات أكبادها, ودم شبابها ما تشيب له العثانين, وعلى الناظر أن لا يغتر بما يسمى بالديمقراطية في العالم الغربي, إذ حين يرى بعضهم سهولة ويسر تناوب الأحزاب على السلطة, وتخلي الحكام عن كراسيهم يظن أنه بإمكان المسلمين أن يصلوا إلى الحكم عن هذا الطريق, وهذا خطأ جسيم, إذ أن هذه الأنظمة لم تستقر على الحال إلا بعد حروب طاحنة بين حملة هذه الفكرة "الديمقراطية" وبين خصومهم, وما من دولة تشكلت "وهي مستقلة " إلا بعد حروب مع خصومها, فأمريكا زعيمة العالم الديمقراطي الحر, الجامعة تحت رايتها ولايات عدة, لم توجد على هذا الشكل من العقيدة السياسية والوجود الجغرافي الممتد إلا بعد حروب أهلية طاحنة بين الشمال والجنوب, حروب أكلت الأخضر واليابس, حتى تم غلبة أحد الفريقين على الآخر, فتواضع المنتصرون على هذا الشكل من النظام السياسي, وهذه الصورة من الحياة.
وكذلك أوروبا وما اشتملت عليه من دول وحكومات, فإن هذه الحكومات لم تتشكل على هذا النسق إلا بعد حروب داخل

القارة وخارجها, قدم فيها كل فريق الغالي والنفيس, حتى خلصت إلى أحد الفريقين, فتواضع المنتصرون على هذا الشكل من الأنظمة وهذه الصورة من الحياة.
ولو سألنا أنفسنا: لماذا يحق للغرب أن ينشر عقيدته عن طريق القوة والسلاح كما تصنع أمريكا وأوربا ولا يحق لخصومه ذلك ؟.
هؤلاء الذين يريدون نشر الأفكار, ثم يريدون لهذه الأفكار أن تكون في سدة الحكم والسلطان ثم لا يسيرون في ركاب حملة السلاح والمقاتلين , هؤلاء أشبه بالفلاسفة السفسطائيين حيث تضيع صرخاتهم هباء.اهـ
ونحن أمة الإسلام الماجدة الخالدة, وقد أكرمنا الله بأن شرع لنا الجهاد في سبيله, وجعل القيام بهذه الشعيرة - التي غفل عنها الكثير من أتباع محمد صلى الله عليه وسلم - من أفضل القربات إليه, ومن أحب الأعمال وأرضاه عنده, وخصَّ القائم بها بمنزلة قلما ينالها غيره, وحباه رفعةً وذكراً في الملأ الأعلى قلما يحضى به سواه, وأعد له أفضل المنازل وأبهى الأماكن يوم اللقاء الكريم أقول: وقد أكرمنا العلي القدير بما سبق ذكره, بأننا أحق الخلق بإدراك ما أدركته تلك الأمم, وأجدر الناس بأن نعقل ما عقلته تلك الشعوب, وحريّ بنا أن ننفر إلى ميادين النزال ملبين داعي الرحمن.. بعد أن بان عور تلك المسالك البالية, والأساليب الغير مجدية نفعاً, المتمثلة بالديمقراطية الشركية والانقلابات العسكرية, إلى غير ذلك من الأساليب والطرق التي ابتدعتها عقول النقص من البشر, واتضح لكل ذي بصر وبصيرة فسادها وفساد منبعها ومصدرها, وما ذلك إلا لأنها حادت عن الخط الأصيل, والمنهج القويم والمنبع النبوي الصافي, الذي جاء به معلم الناس الخير محمد صلى الله عليه وسلم القائل: (بُعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له, وجُعل رزقي تحت ظل رمحي, وجُعل الذل والصغار على من خالف أمري, ومن تشبه بقوم فهو منهم..) .
وما ذلك أيضاً إلا لأنها زاغت عن الوحي الإلهي الكريم, الذي تنزل على الضحوك القتال يرشده فيه ويأخذ بيده الشريفة, وبيد أتباعه وورثته وإلى يوم الدين, إلى الطريق السوي المستقيم المفضي إلى القضاء على الشرك, وإقامة سلطان الله في الأرض: }وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ{ (الأنفال: ٣٩)

موقف الجماعات الإسلامية من الجهاد في سبيل الله في عصرنا الحاضر.

إن المتأمل في حال الجماعات الإسلامية العاملة اليوم ومعن النظر في ما وصلت إليه ليدرك كل الإدراك مدى الفجوة السحيقة, بين تلك الجماعات وبين ذروة سنام هذا الدين " الجهاد".
ولمزيدٍ من الإيضاح وباختصار شديد نقول وبالله التوفيق: إن نظرة تلك الجماعات العاملة في الساحة الإسلامية اليوم تتفاوت من جماعة إلى أخرى.
فمن تلك الجماعات من قزم الجهاد ومسخه, وجعله مقصوراً على دفع العدو الصائل الذي يصول ويجول في الحدود التي خطها قلما سايكس وبيكوا, وغيرهم من أبناء الاستعمار الصليبي, كجماعة الإخوان المسلمين التي قصرت الجهاد وجعلته في حدود الوطن الواحد والقومية والجنسية الواحدة, ودفعاً فقط للكافر الأصلي الصائل, كحال حركة حماس التي طالما تغنى روادها بحرمة الدم الفلسطيني, وكأنه دم مقدس لا يجوز سفكه وإراقته بحال من الأحوال حتى ولو ارتد صاحب ذاك الدم الأزرق !
أما اخوان العراق فياليتهم اتبعوا نهج إخوان فلسطين.! في قتال الغزاة من أبناء الصليب, بل وللأسف الشديد سلموا للمحتل الصليبي, ووضعوا أكفهم بكفه, وغدوا أحد أركان الديمقراطية الشركية فوق ثرى ذاك النازف المهطال.
وبالعموم نستطيع أن نقول: أن جهاد أعرق الحركات الإسلامية الإخوان المسلمين, غدا جهاداً قومياً وطنياً يستهدف الكافر الأجنبي المحتل, أما المرتدون الجاثمون على صدورهم وصدور أبناء التوحيد, فهؤلاء إخوانهم وأشياعهم, وملوكهم وأمراؤهم الشرعيون, الذين لا يجوز الخروج عليهم بحال من الأحوال بل الواجب الصبر على أذاهم, ومناصحتهم بالقول الحسن وخفض الجناح لهم والتذلل بين أيديهم طمعاً ببعض فتاتهم وإلى الله المشتكى...
ومن تلك الجماعات من عطل الجهاد كليةً, وحرف النصوص وصرفها عن مقاصدها الأصلية, وتلاعب بها لتوافق هواه وما يدعوا

إليه, وجعل الجهاد كل الجهاد في الدعوة والتبليغ بالكلمة الطيبة, والموعظة الحسنة والحكمة والروية والعقل, وأن إصلاح نفوس البشر الشاردة وردها إلى فاطرها هو من أعظم القربات إلى الله, وهو ذروة سنام هذا الدين, وادعى ظلماً وزوراً وجهلاً أن المسلمين الآن في الفترة المكية, ولا ينبغي لهم أن يمتشقوا قساطلهم وصوارمهم ليذودوا عن حمى التوحيد. وليس لأبناء التوحيد الآن سوى الصبر على الأذى, والقتل والتقتيل وانتهاك الحرمات, وما عليهم سوى انتظار المهدي المنتظر ليأخذ بيد الأمة التائهة, ويبوأها عرش البشرية المغتصب, ويقيم لها سلطان الله في الأرض...!

ومن تلك الجماعات من اشترط وجود الإمام العادل, وجعل التربية والتصفية وطلب العلم الشرعي, حتى يكون إيمان كل فرد في الأمة كإيمان أبي بكر, وكعدل عمر, وحياء عثمان, وشجاعة علي, وفقه ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم أجمعين!

أقول: جعل تلك الشروط التي يستحيل تحققها في عالم البشرية اليوم, شرطاً واجباً لا تحيد عنه ولا تقبل سواه, حتى تشرع بالقيام بفريضة الجهاد الغائبة, والذي يفطر القلوب حزناً وأسى, أن من يتبنى هذا الفكر هم أكثرية طلاب العلم, ممن ينتسبون إلى السلفية ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ومن هذه الجماعات من ألغى الجهاد كلية واستبدله بإنشاء المؤسسات المدنية, وإقامة المنابر الإعلامية كالسلفية الإصلاحية, فالجهاد الواجب الآن في عرفهم هو جهاد الكلمة والموعظة الحسنة والدعوة الى قبول الآخر والحوار معه بالكلمة الطيبة, ومناصحة أولياء الأمور بما يوافق أهواءهم والى الله المشتكى.

ومن هذه الجماعات من ألغى الجهاد كلية حتى تقوم دولة الإسلام, واستبدل الجهاد الذي هو الطريق الشرعي الذي ارتضاه لنا الله عز وجل لتغيير المجتمعات ونصر الدين والقضاء على الفتنة ونشر التوحيد, بطلب النصرة من غيره ليسودوه العرش , ويكللونه صولجان الملك, وكأن المُلك سلعة رخيصة تباع وتشترى, وتناسوا ان المُلك وإقامته يحتاج الدماء وبذل المهج والأرواح.

نعم ! إن المتبصر في أحوال تلك الجماعات, والمطلع على أدبياتها والمتابع لحديث روادها ومنظريها وقادتها, ليدرك كل الإدراك, ويبصر بالبصر والبصيرة إذا كان من طلاب الحق صحة ما ذهبنا إليه, ودقة ما طرحناه, وصدق ما سطرناه وكتبناه, وصَدق الصادق المصدوق أول غرباء هذا الدين, النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم عندما قال: (بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ غريباً فطوبى للغرباء) .

وما أجمل ما قاله شيخنا المجاهد أيمن الظواهري واصفاً حال بعض هذه الجماعات: فقد استمرت الأنظمة المتحكمة في أمتنا الإسلامية في المكر للإسلام وأهله, وكان من آخر ما تفتق ذهنهم عنه - بعد أن أدركوا خطورة مواجهة الإسلام بالعداوة الظاهرة المكشوفة - أن لجأوا إلى تفتيت صف المسلمين وصرفهم عن الفريضة العينية الشرعية, لهذا التفتيت وسائل شتى من أهمها, تشجيع الدعوات التي تتزيا بزي براق جذاب, وفي حقيقتها تؤدي إلى أمرين:

أولهما: التنازل عن أهم أركان عقيدة المسلمين, ألا وهو ركن التسليم بحاكمية المولى سبحانه وتعالى, واتباع أصول الجاهلية الديمقراطية في التشريع التي تعني التسليم بحق البشر في اختيار ما يرونه من تشريعات وعقائد.

وثانيهما: نبذ الجهاد العيني الواجب ضد تلك الحكومات المرتدة التي تحكم بلاد المسلمين, بل ومعاداة وتسفيه من يدعو إلى ذلك والتشنيع عليه ودعوة الحكومات إلى القضاء عليه, والتبرؤ منه أمام هؤلاء الطواغيت.

ومن هذه الجماعات التي تدعوا إلى هاتين الدعوتين المفرقتين لصفوف المسلمين, جماعة الإخوان المسلمين - وخاصة في هذه السنوات الأخيرة - حيث دأبت على شجب العنف وإعلان الالتزام بالشرعية الدستورية, شرعية القوانين الجاهلية, شرعية إنكار حق المولى سبحانه وتعالى في التشريع لعباده, إن هذه الجماعة تستغل حماس الشباب المسلم لتضمه إلي صفها بل لتدخله في ثلاجتها, ولتحول مجرى حميته الإسلامية من جهاد الطواغيت إلى المؤتمرات والانتخابات) .

ومما قاله الشيخ المجاهد أبو قتادة الفلسطيني باكياً حال هذه الجماعات: إذا كان أهل الإسلام قد اتفقوا على إزالة طاغوت مرتد, فما هي الطريقة التي يمكن لهم فيها أن يزيلوا هذا الطاغوت عن كرسيه؟.

الذين يطرحون منهج تربية الناس على الإسلام حتى يكثر عدد الإسلاميين, فيتم التغلغل والسريان من غير تعليمهم فن القتال والحرب, بل جل همهم أن يكونوا حملة أسفار أو أذكياء سياسة, أو صوام نهار وقوام ليل, وحفظة قرآن وحديث, - وهؤلاء مراتبهم تمتد بين طرفي النقيض من صوفي إلى سلفي وبينهما إخواني - فهل يعجز الطاغوت أن يوجد في ركابه مائة رجل, بيدهم السلاح والقوة, فيميلون على زوامل العلوم فيبقرونها, وعلى أذكياء فن المكن فيفسدون فنونهم, وعلى العبَّاد فيقطعون مسابحهم ويخربون مساجدهم ؟. إنه لا يوجد عاقل على وجه الأرض تحرر من أوهام الخرافة وجبرية المبتدعة

وغنوصية الصوفية يطرح طريقا لإزالتهم غير طريقة الجهاد.) .

نداء إلى أصحاب البروج العاجية.

إن النفس البشرية التي أخذت على عاتقها مسؤولية بناء المجتمع المسلم, وتشييد خلافة الله في الأرض لتقف مبهورة واجمة ساكنة, وقد تملكها العجب كل العجب , من أولئك المنظرين الذين تعلوهم العمائم المزركشة, وتكسوهم البدلات المنمقة, الغارقين في أعطاف النعيم, الغاطسين بين جنبات الفراش الوثير, وقد امتطى الواحد فيهم صهوة برجه العاجي, وتربع على عرش أحلامه الوادع, وقد زين له إبليس عمله وأرخى عليه أستاره, ومنَّاه وداعب أحلامه, وتركه في غفلته يرسم معالم الطريق ويسن النظريات, ويحدد القواعد العريضة التي سيشيد على أسسها ذاك الصرح الشامخ المتمثل بالمجتمع المسلم, الذي يطمع إلى إقامته... أقول إن المرء ليصاب بالدهشة وتأخذه العبرة وتلفه الحسرة... ولا يسعه إلا أن يقول وقلبه يتفطر حزناً على أمثال هؤلاء: ويحكم بني قومي أو ما قرأتم كتاب الله..؟! أوما تتبعتم سير المرسلين...؟! أوما أحطتم علماً بدرب أصحاب الدعوات...؟! أوما كان لكم عبرة في أحد والأحزاب...؟!

أفيقوا بني قومي من سباتكم الطويل, واستيقظوا من غفلتكم إن كنتم جادين بإقامة دين الله في الأرض , فالطريق الموصل لإقامة حكم الله طريق طويل لاحب.. تصمت فيه الألسنة وتنطق فيه الأسنة والرماح.. وتخطب فيه السيوف على المنابر.. وتندر فيه الرؤوس في المعامع.. وتهدر فيه الدماء في مواطن النزال.. وتتطاير فيه الأعضاء في ساحات المنايا والحتوف وتتناثر.. وتنهش غصص المرارة أجساد سالكيه.. وتعض أنياب الرزايا والدواهي والخطوب نفوس عابريه.. وتلتف حبال الغربة على أعناق رائديه.. نعم هذا هو الطريق لمن أراد أن يُنصب أمة الإسلام عرش البشرية المغتصب, وهذا هو الدرب الموصل إلى إقامة دين الله في الأرض, واقعاً عملياً في دنيا البشر.

الابتلاء والصبر على هذا الطريق.

سنن ربانية لا تتغير, ونواميس كونية لا تتبدل, هكذا أراد وقدر مبدع هذا الكون وبارئه لحاملي الرسائل السماوية ومبلغي الأمانة الربانية.

طريق واحد لابد أن يعبر من خلاله كل مَن حمل دعوة, أو كُلف بتبليغ رسالة, أو أراد أن يصنع مجداً لأُمته, أو ينشر مبدأ أو ينهض بأمة.

درب طويل لاحب حُفّ بالمكاره, وعُبِّدَ بالبُرحاء, وروِّيَ بالعرق والدماء.

صفحات محن وابتلاء, وعناء وأرزاء, سُطرَ بين ثناياها أعظم الأسماء, وحوت بين أسطرها أسرار أجلّ الدعوات.

جسر طويل واصل بكى فوق خشباته نوح.. وألقي في النار إبراهيم.. ونشر بالمنشار يحيى.. واضطجع للذبح إسماعيل.. وبيع يوسف بثمن بخس دراهم معدودة ولبث في السجن بضع سنين.. وكُذب وعانى فوقه خشباته لوط.. وذبح السيد الحصور يحيى وقدم رأسه الشريفة لبغية.. وقاسى الضر والمرض أيوب.. وسار مع الوحش في البراري عيسى.. وزاد على المقدار بكاء داود.. وعودي سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم وكسرت رباعيته وشق وجهه الشريف.

أجل والله ! إنه عناء وابتلاء ومحن وتضحيات, واكب مسيرة ذاك الركب الرباني الفريد, الذي ابتدأه آدم عليه السلام, ليواصل رسل التوحيد تلك المسيرة المضنية مع أقوامهم المعاندين, وتلقي بثقلها بعد قرون عِدة, هناك بين رواسي مكة حيث عميد تلك الدوحة النبوية الشريفة النبي العربي الأميّ محمد صلى الله عليه وسلم, وقد امتطى صهوة الابتلاء, وعالج الفقر والأذى والصدود والعناد... لتتواصل من بعده مسيرة الابتلاء, التي أسدلت بأثوابها وعلت كل داعية رباني دعا إلى خير, أو عمل على إصلاح وتصحيح, أو وقف في وجه جاهلية عمياء, أو نمط حياة أو سلوك خطه وارتضاه أصحاب الأهواء, وعشاق الشهوات من بني البشر.

قال إمام أهل السنة والجماعة الإمام المبتلى أحمد بن حنبل: ذُكر الصبر في القرآن الكريم في نحو تسعين موضعاً, وهو واجب بإجماع الأمة, بل هو نصف الإيمان حيث أن الإيمان نصفه شكر ونصفه صبر.. ولمنزلة الصبر العظيمة في الإسلام كان الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد, ولا إيمان لمن لا صبر له, كما أن لا جسد لمن لا رأس له.

وقد عرف العلماء الصبر بقولهم: الصبر حبس النفس عن الجزع والتسخط, وحبس اللسان عن الشكوى وحبس الجوارح عن التشويش.

وهو ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله, وصبر على معصية الله, وصبر على امتحان الله, وهذا الأخير أي الصبر على امتحان الله وابتلائه هو الذي يواكب مسيرة أصحاب الدعوات ومبلغي الرسالات, ويجلل درب أتباع الرسل وهداة البشر بأنواع الأذى والأرزاء.

ولما أن كان الصبر على الابتلاء, والصبر في تبليغ الدعوات على المعاندين المكابرين ديدن الرسل, وشيم أتباعهم وأشياعهم وإلى يوم الدين, فقد كثر الحديث عنه في القرآن الكريم, ومُنزله على قلب النبي الكريم صلى الله عليه وسلم أعلم بمكنونات النفس البشرية وأسرارها, وبطرق الدعوة ومسالكها الوعرة, ودروبها الشائكة الشاقة أقول: امتلأ القرآن الكريم بذاك الطيف الرباني الهادي, الذي يحث أتباع محمد صلى الله عليه وسلم على الصبر والمصابرة على هذا الطريق الدامي فقال سبحانه وتعالى: } يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ {(البقرة: ١٥٣)

وقال سبحانه وتعالى في موضع آخر: } يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ { (آل عمران: ٢٠٠)

وقال جلّ جلاله في موضع آخر من الذكر الحكيم: } وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ { (البقرة:١٥٥)

لا شك هو طريق طويل موحش, ولكن الأجر الذي ينتظر عظيم, والجزاء الذي أُعد وافر محمود, والعاقبة التي يلوح سناها في الكتاب العزيز تستحق الإقدام وولوج أبواب المنايا والحتوف, وخوض غمار المعامع بالنواصل والسيوف.

أجل ! بشر الصابرين على دينهم القابضين عليه, الثابتين على مبادئهم, المسترخصين دنياهم في سبيل التمكين لدينهم, لا لشيء...! سوى إرضاء بارئهم, والفوز برضوانه والخلود في جنته.

أجل ! يجب أن تدرك كل طليعة مؤمنة, وكل صاحب دعوة حق أن الابتلاء ومعايشة الأهوال ومكابدة الخطوب والأرزاء, هو قدر كل داعية حق, ولا مفر ولا مناص عنه.. كيف لا..؟! والقرآن قائم بيننا يقص علينا قصص الطلائع الشامخة التي سبقت, ويحكي لنا حكاية الثلة الطاهرة التي مضت, ويرسم لنا معالم درب السالكين إلى الله, الراغبين بنصرة دينه, وتحكيم شرعه, وتطبيق منهاجه واقعاً حياً في دنيا الأشخاص وعالم المحسوسات: } أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ { (البقرة:٢١٤)

خطاب واضح بيِّن لا لبس فيه من رب العالمين للعصب المؤمنة, ولذاك الفرد الموحد الراغب فيما عند الله, الطامع في مرضاته المشتاق إلى نصرة دينه.

خطاب يقرع فيه أرحم الراحمين أبواب القلوب الممتحنة, ويربت فيه على أكتاف السالكين, ويسلّي به عصب الموحدين, ويواسي به غربة أتباع الرسل وقد أطبق ليل الجاهلية الدامس على فجر الدعوة وروادها الأوائل.

خطاب كريم من عليم حكيم يبث فيه نسمات الصبر في الأجساد الموحدة, وقد التفت عليها أنياب الرزايا والمدلهمات, وعضتها أسنان البأساء والضراء, وزلزلتها الكلال والوعثاء.

خطاب جليل رسم فيه العزيز الخبير الخطوط العريضة لأتباع الرسل, حتى لا يتيه مركبهم في خضم أمواج الحياة المتلاطمة, ولا تتشتت أفكارهم في الزخم المتواصل من الأهواء, ولا تتفرق بهم السبل وقد غصّت الأرض بالفتن, ويدركوا كل الإدراك أن لا جنة من غير ابتلاء وأرزاء, وأن لا جنة من دون بأساء وضراء, وأن لا نصر ولا تمكين من غير اكتحال بالسهاد وافتراش للقتاد.

قال المعتز بالله أبو مصعب الزرقاوي رحمه الله: وقد اقتضت حكمةُ الله - سبحانه - ابتلاءً لعباده وتمحيصًا لهم, أن يتسلط الباطلُ وحزبُه على الحقّ وأهله تسلطًا قدريًّا, قال تعالى : } وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ { وهذا قضاءٌ كوني واقعٌ لا محيص عنه, ولا دافع له , فكل من استمسك بغرز هذا الدين , وأخذ على عاتقه تطبيقَ حكمه بين العالمين, فلا بد أن ينالهُ قسطٌ من ذلك التسليط, ونصيبٌ من تلكم العداوة.

ويتضحُ ذلك جليًّا في قول ورقة بن نوفل للنبي صلى الله عليه وسلم: (لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي). فكل من سار على درب النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابِه رضوان الله عليهم, ودعا إلى مثل ما كانوا عليه, فلا بدَّ أن يناله نصيب من العداوة, ويصيبَه شيء من الأذى من الباطل وأهله بحسب حاله والتزامه بمنهجهم, ومنشأ هذه العداوة

وسببُها, أن مجرد رؤيةِ أهل الباطل لأهل الحق, وإن كان الحق في أضعف حالاته وأعجزها تذكر أهل الباطل بباطلهم, فتقطع عليهم نشوتهم, وتنغصُ عليهم تمتعهم بشهواتِهم, وتوقفهم مع أنفسهم لتفضح هذه الأنفس, وتبينَ ضعفها, وزيف قوتها وذلتها, حيث غدت عبدة ذليلة مهانة لشهواتها وأهوائها.) .

الابتلاء بوابة الطريق الموصلة إلى النصر والتمكين

لقد شاء الله واقتضت حكمته, أن يكون صلاح أمر الدنيا واستمرار الحياة البشرية فوقها, قائماً على سنة التدافع بين الحق الذي يمثله الرسل وأتباعهم وورثتهم, وبين الباطل الذي يتصدر زمام أمره إبليس اللعين, وزمره من أحلاف الشر والباطل, وقد بيَّن العلي القدير هذه الحقيقية وجلاها بوضوح في كتابه الكريم إذ يقول: } وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ { (البقرة:٢٥١)

فهذا القبس الإلهي الكريم يدلل دلالة واضحة لا لبس فيها, أن لا حياة بشرية فوق هذا الكوكب الأرضي بغير ذاك الناموس الكوني, وتلك السنة الجارية ألا وهي سنة التدافع بين الخير والشر.

ولما أن كان الأمر كذلك, كان لزاماً على كل صاحب دعوة حق, ومبلغ رسالة ومؤدي أمانة ربانية, أن تقف الجاهلية بأطيافها وأشياعها وسدنتها, سداً منيعاً وعقبة كأداء وصخرة صماء في وجه صاحب الدعوة وفي وجه العصبة المؤمنة, التي آمنت برسالة ربها, وانتفضت في وجه الجاهلية, وكفرت بقيمها السائدة, وأخذت على عاتقها القضاء على أطماع البشر المتألهين, وتحطيم قدسيتهم الزائفة وفضح ضلالهم, وإخراج الناس من عبادة الأشخاص والأهواء والشهوات والتشريعات الباطلة, التي سنها المغتصبون لحق الله, وردّ تلك الجموع التائهة الضائعة, وإخراجها من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام وبهاء الإيمان.

وبما أن بناء المجتمع المسلم, الذي يتبعه قيام خلافة الله في الأرض, لابد له من عصبة مؤمنة, قد أخذت على عاتقها, وحملت على كاهلها مسؤولية تبليغ الناس الرسالة الربانية, ودعوتهم إلى الحق الذي بين أيديها, والعمل الجاد والدؤوب, لإقامة حكم الله في الأرض, كما اقتضت سنة الله في إقامة المجتمعات المسلمة, كان لزاماً على الجاهلية بكافة أطيافها, وعلى اختلاف مسمياتها, أن تشهر سيف عدائها في وجه التجمع الرباني الناشئ, وتنسج خيوط مكرها ليل نهار, من أجل وأد أحلام ذاك التجمع الكريم المحدود, القليل العدد والعدة في مهده.

مراحل المكر الجاهلي بأصحاب الدعوات:

المرحلة الأولى: التشويه الإعلامي.

بينما موكب الطليعة الربانية, يشق طريقه الوعر الموصل بين ركام الجاهلية العمياء, وقد علا على تصورات البشر المشوهة, التي لوثها ماء الانحطاط الجاهلي الآسن, بينما ذاك الموكب الصادق يشق طريقه اللاحب المرير, وإذا بفصول المعركة الدامية والمواجهة الحتمية تبدأ بعرض صورها, وتأخذ المحنة برواية حكايتها الدامية, المغلفة بمرارة المسيرة المضنية, ويحلق طير الابتلاء في سماء الخطوب, وقد أبرز مخالبه وأعملها في جسد الطليعة الصابرة المصابرة, التي اضطلعت بحمل تكاليف الدعوة وتبليغها للبشرية أجمع.

ولقد صور القرآن الكريم في مشاهد باهرة أخّاذة, أول فصول تلك المواجهة الحتمية, بين الجاهلية القريشية متمثلة بصناديدها وسدنتها, وبين الفئة المؤمنة, فقال سبحانه وتعالى واصفاً ذاك المكر الإعلامي الداعي إلى صد الناس عن دعوة الفئة المؤمنة ورائدها النبي الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم, وما ذلك إلا طمعاً في تشويه تلك الصورة المنيرة للمربي الأول, ومعلم الناس الخير وهاديهم إلى البر, والنيل كل النيل من تلك الفضائل الحميدة, والخصال المجيدة التي دعا إليها قائد الغر الميامين..

قال تعالى حاكياً عن ذلك المكر: } وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ { وقال سبحانه وتعالى: } نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا { (الاسراء: ٤٦)

وقال أيضاً: } بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ { (الانبياء: ٥٤)

وقال سبحانه:}.. أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا { (الفرقان: ٨)

وقال عز من قائل: }وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا

إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿ (سبأ: ٤٣)

نَعم ! هكذا كان ردُّ الجاهلية القريشية على الحقِ المبين، الذي جاء به سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم , وما ذلك إلا لتنفير الناس عن ذاك الخير العظيم، الذي جاء به النبي الكريم, وصدهم عن تلك الدعوة الربانية الخالصة الداعية إلى التوحيد والكفر بالأنداد والأوثان، التي تعبد من دون الله.

واليوم يتطلع ذاك الموحد الذي أنار الله بصيرته إلى الجاهلية المعاصرة, التي أرخت بأستار ليلها المظلم على البشرية جمعاء, فلا يبصر سوى تلك السهام المسمومة التي صوبها سدنة الجاهلية وحراسها على صدور الفئة المجاهدة، التي رفعت لواء التوحيد الخالص وكفرت بالأنداد, ولم تبق تلك الجاهلية اللعينة في قاموس كلماتها صفةً سيئة، ولا نعتاً بشعاً، ولا كلمة بذيئةً قبيحة, ولا جملة تشمئز منها النفوس، إلا ورمت به تلك الفئة الصادقة.

أنظروا إليهم إنهم قتلة سفاكوا دماء.. إنهم مجرمون إرهابيون لا يتورعون عن سفك دماء طفل أو امرأة أو شيخ عجوز مسنٍّ.. إنهم فتية طائشون أخرجهم الفقر والحاجة والعوز.. إنهم جهلة لا يفقهون حقيقة دينهم السمح المعتدل المرن السهل.. إنهم فئة ضالة مضلة خرجت على أمر وطاعة ولي الأمر الشرعي.. إنهم تجار مخدرات وخمر ورقيق أبيض.. إنهم قد يئسوا من حياتهم, ولفظتهم مجتمعاتهم فهاموا على وجوههم حيارى تائهين فلم يجدوا سوى جماعات الإرهاب الجهادي محضناً لهم ومأوى, ففروا إليها هرباً من واقعهم المزري المؤلم.. إنهم.. إنهم.. إنهم..

قال الإمام ابن القيم رحمه الله في مدارج السالكين: فإذا أراد المؤمن الذي قد رزقه الله بصيرةً في دينه، وفقهًا في سنة رسوله، وفهمًا في كتابه، وأراه ما للناس فيه من الأهواء و البدع و الضلالات، و تنكّبهم عن الصراط المستقيم، الذي كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم و أصحابه, فإذا أراد أن يسلك هذا الصراط فليوطن نفسه على قدح الجهال، وأهل البدع فيه وطعنهم عليه، و إزرائهم به, و تنفير الناس عنه, و تحذيرهم منه, كما كان سلفهم من الكفار يفعلون مع متبوعه و إمامه صلى الله عليه وسلم, فأما إن دعاهم إلى ذلك, و قدح في ما هم عليه, فهنالك تقوم قيامتهم, و يبغون له الغوائل, و ينصبون له الحبائل، ويجلبون عليه بخيل كبيرهم و رجله، فهو غريب في دينه لفساد أديانهم، غريب في تمسكه بالسنة لتمسكهم بالبدع، غريب في اعتقاده لفساد عقائدهم.

تأمل إنها نفس الجاهلية الأولى التي واكبت مسير الطليعة الأولى, التي قادها المربي الأول محمد صلى الله عليه وسلم، وها هي اليوم تعود بثوبها الجديد، تعيق مسير الفئة الغريبة المجاهدة بمكرها وكيدها المتجدد، مخترعةً ألفاظاً جديدة, وكلمات وجمل سفيهة لم تخطر على بال أكابر الجاهلية الأولى, ولم تطرق أخيلة صناديدها الأول.

المرحلة الثانية: التعذيب الجسدي

وأمام صبر رواد الطليعة المؤمنة على تكاليف وأعباء الدعوة، وصبرهم على مكر الجاهلية الإعلامي، ومع تزايد أتباع ومؤيدي العصبة الموحدة، والتفاف القلوب المتلهفة لنصرة الحق عليها, بعد أن أدركوا وتيقنوا وأبصروا ببصيرتهم وبصائرهم الحق الذي جاءت به تلك الثلة الموحدة, والصدق الذي تختزنه بين ثنايا دعوتها, وثبات روادها، واستعصائهم على البيع والشراء, وبذلهم الغالي والنفيس، قاصدين وجه مليكهم جل جلاله، ومن ثم إقرار مبادئهم وثوابتهم وقيمهم، واقعاً معاشاً في دنيا البشر.

أقول: بعد أن استعصت الدعوة وحراسها, ويبس عود أبنائها الميامين, وعجزت الجاهلية أن تنال منها بمكرها الإعلامي، أو أن تحول بينها وبين الجماهير الظمأى لإرواء عطشها من حق السماء، في هذا الوقت من الزمن الممتد، يبدأ الفصل الثاني من محنة الفئة المؤمنة, حيث تتعرض الدعوة وحملتها إلى هجمة شرسة, وحملة مدمرة قلما ينجوا من بطشها موحد مخلص لربه, مضح لأجل نصرة دعوته، والتمكين لمبادئه.

ولقد أكرم العلي القدير - وهو أعلم بمكنونات النفس البشرية_ أتباع الرسل وقص عليهم في محكم التنزيل المبين شيئاً من ذلك الابتلاء, وبعضاً من تلك المحنة التي ترافق مسيرة صناع المجد بناة المجتمعات, ليطلعوا على تجارب من سبقهم على هذا الدرب الشائك الموصل, فيدركوا أنه طريق واحد, وجسرٌ أوحد موصل إلى مرضات العزيز الجبار, وإلى التمكين في الأرض واستلام سدة سلطان الله في الأرض، وصولجان ملكها المغتصب, فيقدموا قدوم من لا يعرف التراجع، ويشمخوا شموخ من لا يبصر الانحناء, ويثبتوا ثبوت من لا يتطرق إليه طيف الفرار, ويتيقنوا أنه درب الرسل وديدن دعوتهم، وطريق أتباعهم وحادي ورثتهم، وإلى يوم الدين.

فعلى لسان أوتاد فرعون وأزلامه المتسلطين قال الله عز وجل: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ

وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ {(الاعراف: ١٢٧)

هكذا أبرم حراس الجاهلية الأول أمرهم, وتوعدوا الثلة الصابرة المصابرة على أمر الله, التي التفت حول نبيها الكريم موسى عليه السلام.

إنه مشهد واحد يتكرر, راسماً المعالم التي تسبق نصر الله وتمكينه, ففي هذا النسق القرآني الباهر, الذي صور فيه أرحم الراحمين حال الجاهلية الفرعونية, وقد تكالبت على الفئة المستضعفة, عازمة النيل منها وكسر شوكتها, واستئصال شأفتها وتمزيق جمعها, وتفريق شملها وتقتيل روادها, في هذا الدور من الصراع غير المتناهي وإلى يوم الدين, بين الجاهلية وسدنتها, والطليعة الموحدة وأتباعها, تبدأ رحى الابتلاء بطحن أعصاب العصبة المؤمنة, وتأخذ البأساء والضراء من أركان الدعوة كل مأخذ, وتتكالب أحلاف الجاهلية ومحاور الشر الشيطاني, فلا تدع مسلكاً إلا وتسلكه, ولا وسيلة إلا وتأخذ بها, ولا باب مكر إلا وتطرقه لتمزيق صف الجماعة المؤمنة بربها, وتشتيت شملها ووأد أحلامها, وكبت أنفاسها, فتفتح أبواب سجونها وتزج في غيابها رواد الطلائع المؤمنة, ويتفنن زبانية إبليس وأكابر مجرمي الجاهلية بالتنكيل بالرواد الأوائل, ويذوق الأتباع صنوفاً من العذاب شتى, وتلتف حبال الرزايا والخطوب, فلا تدع موحداً إلا وتنهش من جسده الطاهر.

وعلى وقع سياط المحنة والابتلاء, وفوق أثير صراخات المعذبين من أبناء الدعوة, وعلى إثر أكوام الأشلاء الطاهرة التي تناثرت وأبصرتها عيون دعاة الحق وأتباعه.. وأمام بطش آلة الجاهلية العمياء وعصف الرزايا بالكواكب المنيرة, تبدأ صفوف الثلة المؤمنة بالتمايز والتباين, وهنا تنطلق شرارة الاختبار القاسي والامتحان المؤلم الدامي, وتتجلى حقيقة معادن الرجال, وتتكشف خبايا النفوس تحت مطارق صناديد الجاهلية, فتعتزل بعض النفوس التي دبَّ فيها الوهن والضعف, ولم تتذوق حلاوة الصبر على تبليغ المبادئ والقيم التي آمنت بها, وتأوي إلى روحها تشغلها بالعبادة والنسك, نائية بنفسها عن تحمل تكاليف وأعباء الدعوة, منتظرة ما سيؤول إليه أمر الثلة الصابرة المصابرة, وتخر ساقطة ثلة ثانية, بعد أن تعثرت بأشواك الطريق الدامي الوعر, تخر منحنية أمام عقباته الكأداء, وتتراجع ثلة ثالثة عن مواصلة الرحلة الموحشة المريرة, بعد أن قطعت شوطاً في مكابدة فصول أهواله ومقارعة محنه.

ومع طول المحنة واضطرام أوارها وحلكة ليلها, يبدأ الملل يتسرب إلى مسارب بعض النفوس المثقلة بهموم المسيرة, المكتوية بنار ابتلاءها, فتجنح إلى القعود والتسليم بالأمر الواقع, وسرعان ما يدب الوهن في أوصالها, وينتهي بها المطاف إلى زاوية من الزوايا, يظللها طيف الدعة والراحة والسكون, مخلفةً وراءها مشوار التضحيات, وسنين العناء والأرزاء, نائية بنفسها عن القلة القليلة المتبقية الصابرة, التي لا بد أن يتحقق فيها وعد الله بالنصر والتمكين, إذا شاء وقدر وأذن.

المرحلة الثالثة: الإغراءات المادية

بينما عاصفة الجاهلية تعصف بأتباع الحق, وورثة الأنبياء والرسل, تبدأ سهام الإغراءات تنهال على بعض رواد المسيرة الطويلة, طمعاً في إصابة مقتل منها, ومن ثم استهوائها وشراء ذمها وتضحياتها وتاريخها الناصع, ولعل وعسى تركن إليها, وتذر تلك الدعوة الربانية, التي لا يصبر على أداء تبليغها, وأمانة توصيلها إلى القلوب, سوى العظام والعظام فقط ممن اصطفاهم الملك العلام.

وتحت ضغط الإغراءات الدنيوية الزائفة, ومع هول فداحة الأماني الكاذبة, التي تغري بها الجاهلية بعض رموز الدعوة وروادها, الذين رأت فيهم قابلية الاستجابة لمكرها الشيطاني.

أقول: أمام ذاك النعيم الفاني, والمكانة الجليلة الواهية, والمنصب الرفيع الواطي, الذي تعد فيه الجاهلية من لان جانبه لها, تنهار عزائم من علم الله فيهم الخوار والضعف, وتسكن نفوس من علم الله فيهم حب الدنيا وكراهية الموت, وتذوي شجرة تلك الأرواح التي كانت يوماً من الأيام سامقة.. وتخبوا نار أفئدتها التي تأججت شوقاً في يومٍ من أيام المسيرة المضنية لنصرة مبادئها, والارتفاع بقيمها وثوابتها.

وأخيراً, تسقط تلك الهامات في شباك المكر الجاهلي, وتغدوا من أزلام الجاهلية وأركانها, بعد أن كادت الملائكة تصافحها في الطرقات والمعابر, ليصدق في ذاك الصنف من البشر قوله سبحانه وتعالى: } وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ{ (الاعراف: ١٧٥-١٧٦)

العجز الجاهلي أمام صبر الفئة المؤمنة:

وهكذا, وبعد أن هوى من هوى إلى الأرض صريعاً خاوياً يبحث عن فتاتها, وسقط من سقط على جادة الطريق الدامي, وسما من سما إلى العلياء مغرداً فرحاً مستبشراً بنيل الشهادة والرحيل إلى دار الخلود, بعد أن أدى رسالته في هذه الحياة, وبلغ أمانته للأجيال القادمة, وسطر كلماتها بنجيعه القاني, ليصدق فيه قول الشهيد المعلم سيد قطب: إن كلماتنا ستبقى شموعاً من العرائس لا حراك فيها حتى إذا متنا من أجلها انتفضت وعاشت بين الأحياء.. والأحياء لا يتقبلون الأموات.اهـ

بعد هذا وذاك تبقى كوكبة فذة صابرة مصابرة, تشمخ في وجه الجاهلية, وتصمد في وجه الأعاصير المدمرة, وتصبر على وعورة الدرب ووحشة المسير, ونَصب الرحلة الدامية, يظلل دربها ويؤنس وحشتها ويحادي مسيرها, ذاك النور الإلهي والسنا الرباني, الذي ظلل في يوم من الأيام مسير تلك الكواكب الهادية, التي التفت حول رسلها صابرة مصابرة يحدوها الأمل بنصر اللّٰهِ القادم لا محال... } وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ {(آل عمران: ١٤٦- ١٤٨)

نعم! على ترانيم ذاك الحادي الرباني العذب سارت سفينة الركب القليل المبارك الموعود بنصر الله والتمكين في الأرض, ساروا تحفهم العناية الإلهية الكريمة, وتأخذ بنواصيهم إلى الحق بعد أن عادتهم الدنيا بجاهليتها وجهلائها, وبعد أن تجندل على الطريق المرير من تجندل.

وعلى نفس ترانيم ذاك الحادي الكريم, سارت خطى أتباع الرسل وفي كل زمان تظلله الجاهلية... ساروا فما وهنت نفوسهم الكريمة على الله, لأنها أدركت حقيقة الدعوة إليه, وأدركت أن التضحيات التي تجود بها إنما هي ضريبة هذا الدرب الشائك الموصل إلى رضوانه, وأدركت أن ما أصابها لم يكن ليخطئها, فأسرعت الخطى غير مبالية باقتحام الحتوف, وخوض غمار المنايا بالرماح والسيوف.

أجل ! هي حقيقة واحدة أدركتها تلك الفئة المؤمنة الساعية لإعادة سلطان الله إلى الأرض, فما ضعفت وما استكانت, وما لانت لها قناة لحرس الجاهلية وبطشها الفتاك.. بل سمت وارتقت وغدت نفوسها الزكية أشد حباً لله, وأكثر حرصاً على نصرة شرعه وتحكيم أمره.. وغدت تلك الأرواح الطاهرة أعمق فكراً, وأنضج عقلاً وأحدُّ بصيرةً, لأنها أدركت حقيقة طريق الرسل.. طريق التضحيات.. طريق العناء والأرزاء.. طريق الصابرين على اللأواء, حباً وكرامة لرب الأرض وملك السماء.

أي والله ! واصلت تلك القناديل الوضّاءة في عتمة الليل البهيم, والدعاء يطفح على أودية ألسنتها الرطبة بذكر الله, وقد جأرت إلى الله, بأن يفرغ عليها الصبر على لأواء الطريق ومشقة الجادة.. ولجأت تلك الوجوه المتوضئة إلى جناب الكريم متضرعة إلى مقامه العزيز, بأن يثبت أقدامها على الطريق السوي المستقيم, بعد أن تزلزلت القلوب, ومادت الأرض بأقدام الكثير فزلّت بهم إلى الهاوية السحيقة, ونكسوا على أعقابهم, ومضوا إلى الخزي غير مأسوف عليهم } فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ{ (الدخان: ٢٩)

الابتلاء عنوان صدق الدعوة وصدق روادها.

حقيقة واحدة يجب أن يدركها كل موحد, بل يجب أن يتيقن يقيناً لا يخالجه شك بحتمية وقوعه في عالم الدعوات الربانية... حقيقة واحدة يدركها كل مَن منّ الله عليه وأكرمه واطلع على سير الرسل وأتباعهم وورثتهم الميامين... إنها حقيقة الابتلاء التي تجلل كل دعوة ربانية, وتلازم كل طليعة تضطلع بحمل أعباء وتكاليف الدعوة إلى الله... وكل دعوة لا يجلل طالعها ولا يخيم على أطياف روادها ليل الابتلاء, وأثواب الخطوب والأرزاء فهي دعوة ليست على الحق المبين.. إنها دعوة تشوبها الأهواء البشرية.. إنها دعوة زائغة عن الصراط المستقيم.. إنها دعوة مبتورة خالفت ما جاء به سيد المرسلين, وحادت عن جادة الطريق السوي المستقيم.

وهنا أقول متسائلاً.. كيف لا تنهش مخالب البلاء والأرزاء أجساد رواد الدعوة وتنال منهم الجاهلية التي أسدلت بأثوابها على نهار البشرية, وأحالته إلى ليل بهيم أسود..؟! أرواد تلك الدعوة أكرم على الله من أكرم الخلق أجمعين محمد صلى الله عليه

وسلم, وتلك الفئة المؤمنة التي التفت حول جنابه الكريم...؟! لا والذي رفع السماء بغير عمد إنها ليست بأكرم, ولكنه رضى الجاهلية وسدنتها ! كيف لا تنال منهم الجاهلية والنور الإلهي ما زال يتردد صداه في آذان الموحدين صبح مساء: } أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ {
(البقرة: ٢١٤)

كيف لا تناصب الجاهلية العداء الدعوة وروادها, وقد ناصبت الجاهلية القريشية أحب خلق الله إلى الله محمد صلى الله عليه وسلم وأتباعه, خير من دبّ على هذه البسيطة بعد الأنبياء والرسل, قال سبحانه وتعالى واصفاً مكر الجاهلية الأولى بأصحاب الدعوات:

} وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ {(ابراهيم: ١٣)

كيف لا تعادي الجاهلية الدعوة الربانية وأتباعها, وهذا المثنى بن الحارثة ـ قبل إسلامه- وقد عرض النبي الكريم صلى الله عليه وسلم عليه الإيمان: (بلا إله إلا الله والنصرة..), فرد عليه بفطرته البدوية, وهو الذي يدرك معنى ودلالة هذه الكلمة العظيمة: (هذا أمر تكرهه الملوك.).

كيف لا يقف الملوك والجبابرة والأكاسرة والقياصرة وعبّاد الشهوات في وجه الدعوة ووجه روادها..؟! وهذا الصحابي الجليل ـ قبل إسلامه ـ وقد عرض عليه النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم الإيمان بلا إله إلا الله فقال ذاك العربي بفطرته: (تقاتلك عليها العرب والعجم.).

كيف لا تناصبك الجاهلية العداء وتخرجك من بين أكتافها وهذا ورقة ابن نوفل يردد قائلاً لمحمد صلى الله عليه وسلم : (ياليتني أكون جذعاً حينما يخرجك قومك..فيرد عليه الحبيب الأكرم مستعجباً مستغرباً: أو مخرجي قومي ؟! وسرعان ما يأتي الجواب من الرجل الموحد المدرك حقيقة طريق الدعوة إلى الله: ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا عودي..) .

نعم يا أتباع محمد صلى الله عليه وسلم: ما جاء أحد بمثل ما جاء به نبيكم إلا عودي, ما جاء أحد بدعوة الحق المبين إلا ناصبته الجاهلية العداء, ما جاء أحد بالتوحيد الخالص إلا رمته الجاهلية عن بكرة أبيها بقوس واحدة, ما جاء أحد بدعوة إبراهيم الخليل إلا أخرجه قومه من بين ظهرانيهم.

أجل يا ورثة الحق: هذه سيرة أنبيائكم, وهذا كتاب ربكم دونكم فاقرؤوه, لتدركوا حقيقة ما نبثه إليكم.

وبعد هذا الذي يسر الله تسطيره, يتبين لكل موحد أنار الله بصيرته, أن الابتلاء عنوان صدق الدعوة الربانية, ودليل حق لا لبس فيه, على اقتفاء رواد تلك الدعوة لآثار الرسل, وأتباعهم وورثتهم الميامين وإلى يوم الدين.

ويتضح لكل باحث عن الحق, أن الدعوة التي لا تناصبها الجاهلية العداء, ولا تنال منها بمكرها, بأنها دعوة قد حادت عن جادة الطريق السوي المستقيم, وجنحت بمركبها عن مرسى الحق المبين.

قال شيخنا المجاهد أسامة بن لادن: فلا بد أن يستقر في أذهاننا, أن الالتزام بالدين بالضرورة أن يكون هناك معاداة من أهل الباطل, فكما في الحديث الصحيح في صحيح البخاري -رحمه الله- الحديث الذي ترويه أمنا عائشة رضي الله عنها عندما ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أمنا خديجة رضي الله عنها إلى ورقة بن نوفل فلما قصَّ عليه ما قصَّ من بدء الوحي فقال ورقة بن نوفل: (يا ليتني كنت فيها جذعاً إذ يخرجك قومك), فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أو مخرجيّ هم؟!) قال: (ما جاء رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي), هذا هو فقه محمد صلى الله عليه وسلم, فكل من التزم الإسلام حقاً لابد أن يُعادى.

فهذا هو فهم السلف لمعنى "لا إله إلا الله", وما تقتضيه " لا إله إلا الله" من تحكيمٍ في الأرض وما سيضطر إلى المواجهة مع العدو.

وكما قال المثنى بن الحارثة لرسولنا عليه السلام يوم أن عرض عليهم أن يؤمنوا بلا إله إلا الله, وأن يحموه ويؤووه, فقال المثنى - كان مشركاً يومها - قال: (إن هذا أمر تكرهه الملوك) .

وقال الشيخ الأسير أبو محمد المقدسي موضحاً معالم طريق أتباع الرسل: واعلم ثبّتنا الله وإيّاك على صراطه المستقيم أن هذه البراءة والعداوة التي تقتضي ملة إبراهيم إعلانها وإبداءها لأهل الكفر ومعبوداتهم, تكلف الكثير الكثير.. فلا يظن ظان, أن هذه الطريق مفروشة بالورد والرياحين, أو محفوفة بالراحة والدعة, بل هي والله محفوفة بالمكاره والابتلاءات.. ولكن ختامها مسك وروح وريحان ورب غير غضبان.. ونحن لا نتمنى البلاء لأنفسنا ولا للمسلمين, ولكن البلاء هو سنة الله عز وجل

في هذه الطريق, ليميز به الخبيث من الطيب, فهي الطريق التي لا ترضي أصحاب الهوى والسلطان لأنها مصادمة صريحة لواقعهم, وبراءة واضحة من معبوداتهم وشركياتهم.. أما غير هذه الطريق, فإنك تجد أصحابها في الغالب مترفين وللدنيا راكنين, لا يبدو عليهم أثر البلاء, لأن المرء إنما يبتلى على قدر دينه, فأشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل.. وأتباع ملة إبراهيم من أشد الناس بلاء لأنهم يتبعون منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله.. كما قال ورقة بن نوفل للنبي صلى الله عليه وسلم: " لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي." , فإن رأيت في زماننا من يزعم أنه يدعو لمثل ما كان يدعو إليه النبي صلى الله عليه وسلم وبمثل طريقته, ويدعي أنه على منهجه, ولا يعادى من أهل الباطل والسلطان, بل هو مطمئن مرتاح بين ظهرانيهم.. فانظر في حاله.. إما أن يكون ضالاً عن الطريق.. لم يأت بمثل ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم واتخذ سبلاً معوجة.. أو يكون كاذباً في دعواه يتزيا بما ليس هو أهلاً أن يتزيّا به, إما لهوى مطاع وإعجاب كل ذي رأي برأيه.. أو لدنيا يصيبها كأن يكون جاسوساً وعيناً لأصحاب السلطان على أهل الدين..

وهذا الذي قاله ورقة للنبي صلى الله عليه وسلم هو الذي كان مقرراً في نفوس الصحابة عندما بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم, حيث وقف أسعد بن زرارة يذكرهم ويقول: " رويداً يا أهل يثرب, إن إخراجه اليوم مفارقة للعرب كافة, أو قتل خياركم وأن تعضكم السيوف, فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك, فخذوه وأجركم على الله, وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه, فبينوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله " .) .

خصائص الفئة المؤمنة.

قال الإمام الشهيد عبد الله عزام واصفاً أُولئك الصناديد من البشر الذين أخذوا على عاتقهم مهمة إقامة المجتمع المسلم, وإحياء هذا الدين في نفوس هاجريه, ومُبيِّناً في الوقت نفسه صفات وسمات تلك الطلائع الربانية, وما يجب أن تكون عليه حتى تستطيع أن تواصل السير في الطريق الوعر الدامي الموصل إلى تشييد خلافة الله في الأرض.

يقول الشيخ رحمه الله في كتابه "الإسلام ومستقبل البشرية": لا بد للوصول إلى المجتمع المسلم من طلائع تتحمل تكاليف الطريق, وعلى هذه الطلائع أن تدرك أن الذين يتصدرون لإنقاذ البشرية ليسوا أناسا عاديين, بل من النماذج التي تسترخص كل شيء في سبيل دعوتها وعقيدتها, ولا بد أن تتوفر عندهم صفات على رأسها:

أولا: أن يكونوا ربانيين: } وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ{ (آل عمران: ٧٩)

والرباني هو العالم العامل فقد قال سعيد بن جبير: ربانيين: أي حكماء وأتقياء, وقد قال محمد بن الحنفية يوم مات ابن عباس: (اليوم مات رباني هذه الأمة)) .

} وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ { (آل عمران: ١٤٦)

والربي هو الرباني لأنه عرف ربوبية الله وعبده وصبر من أجله.

يجب أن يكون ربانياً من حيث حركته ودعوته وسمته وصبره وعلمه وعمله, أي لا يغيب عنه لحظة أن الله على كل شيء قدير, وأنه مصدر العزة وأنه كافيه وحاميه ويكلؤه ويرعاه. } أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ{ ,} وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{ (الأنعام: ١٧)

يجب أن يضع الداعية نصب عينيه أن الله على كل شيء قدير ثم بعد ذلك يعلن على الملأ الجاهلي: } ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ (١٩٥) إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ { (الأعراف: ١٩٥-١٩٦)

لا بد أن يستمد الإنسان عونه وعزته وإلهامه من الله, لا بد لمن يتصدى لإنقاذ الناس أن يكون أقوى منهم بالله, لا بد لمن يتصدر لتطهير الناس أن يكون أطهر منهم, ولا بد لمن يتقدم لرفع الناس أن يكون أعلى منهم.

ثانياً: التجرد للدعوة عن المنافع الدنيوية وثمارها العاجلة القريبة, إذ جاء الأنبياء جميعا يقولون: } وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ { (الشعراء: ١٤٥)

تكررت هذه الآية كثيراً على لسان الرسل صلوات الله وسلامه عليهم في سورة الشعراء, ولذا فعندما عرض الرسول صلى الله عليه وسلم على بني عامر بن صعصعة قال له بحيرة بن فراس, أحد رجالها: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم

أظهرك الله على من خالفك. أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمر لله يضعه حيث يشاء فأبوا عليه) .

ولم يكن يعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سينتصر, وأن هذا الدين سيظهره الله في حياته وعلى يديه بل كان ربه يخاطبه قائلا: } فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ { (الزخرف: ٤١-٤٢)

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتقد أن هذا الدين سينتصر, وكان لا يعد ولا يبايع أحداً من المسلمين إلا على الجنة, فقد قال هذا للمضطهدين المعذبين: صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة.

وقال صلى الله عليه وسلم يوم بيعة العقبة الثانية للأنصار: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم, قالوا: فما لنا يا رسول الله إن نحن وفينا ؟ قال: الجنة) . فالبيعة والصفقة مع الله على الجنة, والبيعة في الدنيا على العمل للجنة. } إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ. { (التوبة: ١١١)

ثالثاً: بناء القاعدة الصلبة: يجب الاهتمام بتربية النماذج لا بإكثار الأعداد, لأن الناس إنما يتغيرون بفعل النماذج والأفذاذ.

علينا أن نعتني بالكيف لا بالكم, والفئة الصابرة الصادقة وإن كانت قليلة فإنها تنتصر بإذن الله:

} كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ{ (البقرة: ٢٤٩)

هذه القاعدة الصلبة هي التي أعادت الجزيرة العربية كلها أيام الردة إلى الإسلام, لأن من نماذجها أبا بكر, الذي صاح عندما بلغه ردة القبائل: (والله لو منعوني عناقا - جديا - كانوا يؤدونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم فيه أو أهلك دونه, ثم قال: (أينقص الدين وأنا حي؟). وفي رواية لو منعوني عقالا - الحبل الذي يربط به البعير - وأصر أبو بكر على إنفاذ جيش أسامة, وأجاب الذين راودوه على تأخيره قائلا: (والذي لا إله غيره لو جرت الكلاب بأرجل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ما رددت جيشاً وجهه رسول الله) وفي رواية: (لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة.) .

وفي هذه اللحظة الحاسمة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ساق الله رجلاً حازماً - أبا بكر - لينقذ بموقفه أمة بكاملها من الاندثار والبوار.

لا بد من تربية النماذج الصلبة التي تستعصي على الإغراء, ولا تقبل البيع والشراء من قبل الأعداء والأصدقاء.

لا بد من تربية الأفذاذ, الذين لا يقبلون الذوبان في حوامض المجتمع الجاهلي, ولا يتميعون في ظروفه المختلفة, العناصر الصلبة التي تحمل المجتمع والدعوة فوق كاهلها, نريد الأفرع الصلبة التي لا تتلوى مع رياح المجتمع, ولا تتثنى مع أهوائه.

لقد كان اجتياز الجيش الإسلامي لنهر دجلة عند فتح العراق وفارس إبان فيضانه من القضايا التي أذهلت المؤرخين وحيرهم تفسيرها: اجتاز الجيش لدجلة دون أن يفقد فرداً واحداً من عدده, ولكن القضية الأروع أن هذا الجيش خاض بحور أكبر مدنيتين - الروم والفرس - دون أن يفقد من خلقه ولا من دينه شيئاً) .

لقد تربع سلمان الفارسي على مقام كسرى بعد أن أذله الله وثلَّ عرشه, وكان كسرى يبكي ويقول: لم يبق عندي سوى ألف طباخ, فكيف أستطيع أن العيش بهذا العدد فقط ؟ بينما سلمان - أمير فارس المسلم - ينفق كل يوم درهماً واحداً.

رابعاً: بناء الدعاة لأنفسهم بالعلم الحقيقي والعبادة الخالصة:

لا بد من أن يربط الداعية نفسه أو يربطه شيخه بالقرآن الكريم تلاوةً وتجويداً وتفسيراً ومعرفةً بأحكامه, وأن يبني المسلم نفسه بين أروقة المساجد حيث السكينة والرحمة والملائكة والاعتكاف.

وأن يحسن اختيار الصحبة الطيبة التي تدله على الله, وعليك يا أخي أن تحسن الاتصال بمن يدلك على الله حاله, ويذكرك بالآخرة مقاله.

ولا تنس قيام الليل فله أثر عميق في بناء النفسية المسلمة وصفاء الروح, وقد كان قيام الليل دأب الصالحين, وكذلك صيام النافلة وخاصة يومي الاثنين والخميس.

ولا بد من الذكر باستمرار لإحياء القلب وحفظه من الشيطان ووسواسه ولتحصين النفس من الهوى والشهوة الجارفة والميل.

وكذلك توطين النفس على الشكر في الرخاء, والصبر على البلاء, والاستغفار من الذنوب والأخطاء وتربية النفس على الصبر على متاعب الطريق وتضحيات العقيدة ولأواء الجادة.

ولا بد من استغلال الوقت في المطالعة فيما يفيد أو العبادة والعمل, ولا يجوز أن نقتل حياتنا بالجلسات الفارغة والسهرات الخاوية من الفائدة.

ويجب أن نراعي بناء التصور الصحيح لأنفسنا من خلال كتاب الله عز وجل وسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحياة السلف الصالح...

هذا مع تعويد النفس على تبليغ الدعوة ومواجهة الناس في المساجد والجرأة في تبليغهم مع المحافظة على دروس العلم وتلقيه بأدب وفهم, مع المطالعة في الكتب الحديثة: لسيد قطب, ومحمد قطب, كل هذا مع صدق النية وإخلاص الطوية.

هذه النماذج هي التي يصدقها الله ويجعلها ستاراً لقدره وأداة لنصرة دينه.} وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ { .

النصر والتمكين

حقيقة لا يتطرق إليها شك, ولا يدنوا منها وهم, ولا يكتنفها غموض, حقيقة واحدة لا يخالج فيها قلب موحد عرف الله حق المعرفة أدنى شك بتحققها واقعاً عملياً في عالم المحسوسات, حقيقة النصر والتمكين الواقع لا محال لكل صاحب دعوة, أو حامل منهج رباني, أو مبلغ أمانة إلهية.

نصر لابد حاصل مهما طال الزمان, ومهما علت الجاهلية وحالت بمكرها وجالت وانتفشت بريش غرورها واستكبارها, واستعلت بلهيب خبثها ورجسها, وتسلطت بزبانيتها وآلتها الطاحنة... هكذا قدر العزيز الحكيم وأراد, وقيد الأمر وأنفذ, وخاطب النبي الأكرم محمداً صلى الله عليه وسلم, مواسياً ومبشراً وقد أطبق ظلام الجاهلية على جبال مكة, وأعيت الدعوة أن تثمر ذاك الثمر اليانع, وقد تجبر الصناديد, وطغى أكابر المجرمين من سدنة الجاهلية القريشية, فقال سبحانه وتعالى مواسياً ومسلياً ومبشراً الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم: } حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ{ (يوسف:١١٠)

قالت عائشة رضي الله عنها: هم أتباع الأنبياء الذي آمنوا بهم وصدَّقوا طال عليهم البلاء واستأخر عنهم النصر حتى إذا استيئس الرسل ممن كذبهم من قومهم, وظنت الرسل أن قومهم قد كذبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك.

ولم يمض كثير وقت على نزول تلك الآية الكريمة, حتى كانت طلائع الأنصار تفد إلى مكة وقد ساقها العلي القدير, لتضع يدها بيد النبي الكريم صلى الله عليه وسلم, مبايعة ناصرة ومناصرة, وكانت بيعة العقبة الأولى, لتتبعها بيعة العقبة الثانية, ولتبدأ بعد ذلك هجرة الرعيل الأول, من مكة المكرمة إلى طيبة الطيبة "المدينة المنورة", ليكتمل ذاك العقد الفريد بتلك الجوهرة الكريمة النفيسة, وبذاك الخير العظيم المبارك محمد صلى الله عليه وسلم وقد أذن له أرحم الراحمين بهجرة أحب بقاع الأرض إلى قلبه, والتوجه نحو طيبة الطيبة, ليشيد فوق ذاك الثرى المبارك أول تجمع إسلامي رائده وموجهه رسول البشرية أجمع محمد صلى الله عليه وسلم, ليتبع ذاك التجمع القرآني الفريد أول ملحمة بين معسكر الجاهلية المتمثل بمشركي قريش, ومعسكر التوحيد المتمثل بالنبي الأكرم محمد صلى الله عليه وسلم والفئة القليلة التي آمنت به ونصرته.

أجل ! شُيد المجتمع القرآني فوق ثرى طيبة الطيبة ولكن, لم يكن ذاك التجمع الرباني الذي أسس بنيانه الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم سوى حصيلة أكوام من التضحيات, وشلالات دماء جاد بها الرعيل الأول من الصحب الكرام, الذين التفوا على صاحب الدعوة الأول محمد صلى الله عليه وسلم ونصروه بالمهج والأرواح.

ومن خلال تلك الوقائع الأليمة, التي ظللت درب الرعيل الأول تتضح معالم الطريق, وتتجلى الحقيقة الكبرى لكل طليعة مؤمنة تكابد وهج الجاهلية, وتصارع قيمه السائدة التي تستمد وجودها من تصورات البشر التافهة, وتدرك الفئة المؤمنة أن النصر والتمكين لا بد أن يسبقه جهد وجهاد وابتلاء وأشلاء.

قال سيد رحمه الله في ظلاله: تلك سنة الله في الدعوات لا بد من الشدائد , ولا بد من الكروب , حتى لا تبقى بقية من جهد ولا بقية من طاقة, ثم يجيء النصر بعد اليأس من كل أسبابه الظاهرة التي يتعلق بها الناس, يجيء النصر من عند الله , فينجو الذين يستحقون النجاة , ينجون من الهلاك الذي يأخذ المكذبين , وينجون من البطش والعسف الذي يسلطه عليهم المتجبرون, ويحل بأس الله بالمجرمين , مدمراً ماحقاً لا يقفون له , ولا يصده عنهم ولي ولا نصير .

ذلك كي لا يكون النصر رخيصاً فتكون الدعوات هزلاً، فلو كان النصر رخيصاً لقام في كل يوم دعيٌّ بدعوة لا تكلفه شيئاً، أو تكلفه القليل، ودعوات الحق لا يجوز أن تكون عبثاً ولا لعباً، فإنما هي قواعد للحياة البشرية ومناهج ، ينبغي صيانتها وحراستها من الأدعياء.اهـ

سنة الله في تنزل النصر والتمكين.

لقد اقتضت حكمة الله أن يتنزل النصر دائماً، على الفئة المؤمنة القليلة العدد والعدة، المرتبطة ارتباطاً وثيقاً لا تنفصل عراه عن صاحب القوة والجبروت الملك العلام جلّ جلاله، ففيما الجاهلية تعصف بالفئة المؤمنة القليلة العدد التي استلت سيفها, ولم تعط الدنية في دينها, ووقفت شامخة في وجه الجبروت الجاهلي بأطيافه المتعددة, ولم تنحن لزوابعه العاتية المدمرة, وأمواجه الجارفة المهلكة, فيما تلك الفئة الربانية تقارع الجاهلية وأزلامها وقد بلغ الجهد منها مبلغه, وقاربت أن تقرع أبواب اليأس, في هذا الزمن الممتد تتدخل العناية الربانية والقدرة الإلهية, وتبدأ بوارق النصر يلوح سناها في الأفق, محولةً ليل الابتلاء الداجي رويداً رويداً إلى صبح أبلج.. وتغدوا تباشير التمكين ترسم معالمها مؤذنة برحيل ليل المحنة الدامي, بعد أن أسدل أستاره لأيام طوال, ذاق فيها أتباع الرسل ومبلغو الأمانة الربانية أصنافاً من العذاب شتى, } حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ {.

وقد بين سبحانه وتعالى في مواطن عدة من كتابه الكريم, هذه السنة وهذا الناموس الإلهي, في نصرة أصحاب الدعوات, وأن النصر حليف الفئة القليلة العدد والعدة, فقال سبحانه وتعالى حاكياً حال بعض الأمم السابقة: } أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ {)البقرة: ١٤٦ - ٢٥١)

لقد خرجوا ألوفاً مؤلفة، ولكن على من تنزل النصر..؟! لقد تنزل على الفئة المؤمنة القليلة العدد والعدة، الصابرة المصابرة، التي لم تتجاوز عدد أصحاب بدر كما جاء في بعض الروايات، تنزل النصر بعد طول امتحان وكثير اختبار, وبعد أن تمايزت الصفوف وتمحصت النفوس, وتكشفت خبايا ومكنونات الصدور, وبعد أن تراجع من تراجع أمام شدة الحال، وضيق المقام، وطول المسير, ووحشة الدرب, وسقط من سقط أمام الاختبار الرباني، والامتحان الإلهي، الذي لابد منه لكل تجمع يسعى إلى إقامة حكم الله في الأرض.

قال صاحب تفسير البحر المحيط: فإن الكثرة ليست سبباً للانتصار ، فكثيراً ما انتصر القليل على الكثير، ولما كان قد سبق ذلك في الأزمان الماضية وعلموا بذلك ، أخبروا بصيغة: كم، المقتضية للتكثير.

وإن ممعن النظر في سيرة سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم, ليعلم علم اليقين، ويبصر ببصره وبصيرته, أن النصر لم يتنزل على ذاته الشريفة وعلى صحابته الكرام، إلا عندما كانوا هم القلة في العدد والعدة، فهذه بدر, وتلك أحد في بدايتها قبل أن يعصي الرماة أمر نبيهم, وهناك الأحزاب والجمع الجاهلي الذي فرقه العلي القدير بقدرته، وهناك حنين وقد أعجب بعض المسلمين عددهم وعدتهم حتى قال بعضهم: " لن نغلب اليوم من قلة"، ثم كانت الهزيمة المرتقبة في مثل هذه المواقف، التي تتكل فيها النفوس على العدد والعدة، وتنسى قوة الله ومدده.. ولم يتنزل النصر بعد أن دبّت الفوضى في جيش التوحيد، إلا على ثلة قليلة ثبتت مع سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ولم تغتر بكثرة عدد ولا عدة:} لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ

(٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ{ (التوبة: ٢٥ - ٢٦)

فتأمل هذه السنُّة الربانية في تنزل النصر, وأمعن النظر فيها, ولا يغرنك عديد جيش الباطل, وكثير عتاده, وأيقن أن النصر مع الصبر, ولن يغلب عسرٌ يسرين, لأنه لا عبرة كما يقول الإمام الرازي بكثرة العدد إنما العبرة بالتأييد الإلهي . والنصر السماوي. فإذا جاءت الدولة فلا مضرة في القلة والذلة . وإذا جاءت المحنة فلا منفعة في كثرة العدد والعدة.

الانتصار وحقيقته الكبرى.

إن أول ما يتبادر إلى الذهن البشري حينما تطرق أبوابه كلمة الانتصار, هو ذاك الطيف البديع الذي يجلل النفس البشرية, وقد انتصرت العقيدة وعلت المبادئ, وابتهجت الروح وتنعم الجسد.

نعم ! هذا هو الشعور الذي يواكب ويجلل النفس البشرية عندما تطرق مسامعها كلمة الانتصار, وهذا الأمر متحقق في كثير من المواطن والأزمان ولكن, في مواطن كثيرة أيضاً قد تتخلف هذه السُّنة الجارية لحكمة جليلة لا يدرك كنه أمرها سوى العليم الحكيم, الذي أحاط بكل شيء علما.

أجل ! إن هناك أمراً وحقيقةً كبرى, يجب أن يدركها أصحاب الدعوات ألا وهي: جوهر الانتصار.

إن جوهر الانتصار الحقيقي هو انتصار العقيدة وسمو المبادئ, التي من أجلها بذلت التضحيات, وأُزهقت المهج والأرواح, وأُريقت الدماء, وتناثرت الأجساد, وتطايرت في جو السماء الأشلاء.

وعلى هذا ـ أي انتصار العقيدة ـ بايع الصدر الأول من الصحب الكرام إمام البشرية محمداً صلى الله عليه وسلم, وسار الركب المبارك تحفه العناية الربانية, لا يطمع في شيء من دنيا البشر, همه ومناه أن ينصر عقيدته ويذود دون حماها, ويُمكّن لها في قلوب الأتباع, لا يرجون بذلك ملكاً, ولا يمنون أنفسهم بصولجانٍ ولا بعرشٍ, راجين ثواب الآخرة والفوز بالنعيم المقيم هناك بين يدي أرحم الراحمين.

قال الأستاذ أبو الحسن الندوي واصفاً تلك الحقيقة: حتى إذا خرج حظ الشيطان من نفوسهم - بل خرج حظ نفوسهم من نفوسهم - وأنصفوا من أنفسهم إنصافهم من غيرهم, وأصبحوا في الدنيا رجال الآخرة, وفي اليوم رجال الغد, لا تجزعهم مصيبة, ولا تبطرهم نعمة, ولا يشغلهم فقر, ولا يطغيهم غنى, ولا تلهيهم تجارة, ولا تستخفهم قوة, ولا يريدون علواً في الأرض ولا فسادا, وأصبحوا للناس القسطاس المستقيم, قوامين بالقسط شهداء لله على أنفسهم أو الوالدين والأقربين. وطّأ لهم أكناف الأرض, وأصبحوا عصمة للبشرية, ووقاية للعالم, وداعية إلى دين الله) .

ولقد قصَّ علينا العليم الخبير في كتابه الكريم, بعضاً من قصص أولئك النفر, الذين هدى الله, وكيف انتصرت عقائدهم, وسمت مبادئهم ورحلت أرواحهم, واحترقت أجسادهم دون عقيدتهم, ولم يحفلوا بالنصر الجسدي, ففي مشهد باهر يستحوذ على القلب بجماله وبهائه, صور العلي القدير في قصة أصحاب الأخدود كيف انتصرت العقيدة, وسمت في سماء المجد الخالد, وكيف ارتقت تلك الأرواح الطاهرة, وعلت كل شيءٍ باذلة النفس والنفيس, والغالي والرخيص, ناصرةً توحيدها وموقنة بموعود ربها, راغبة بمآلها الكريم, وقد نزلت ضيفاً كريماً على مائدة أرحم الراحمين, بعد أن جادت بمهجها رخيصةً, وألقت بأجسادها في أخاديد الجاهلية الطاغية, مؤثرةً عقيدتها على المتاع الدنيوي الرخيص, لترحل عن هذه البسيطة وقد جللها إكليل انتصار الروح على الجسد, ولتبقى وإلى يوم الدين نبراساً منيراً, وشموعاً هادية لكل مَن حمل رسالة ربانية, وتكفل بنشر مبدأ قويم سديد قال تعالى: } وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ{ (البروج: ١ - ١١)

لقد رحلت تلك الأرواح الطاهرة إلى بارئها, رحلت وسمت وارتقت وعلت إلى العلياء, رحلت عن دار الفناء والبلاء, وفارقت دنيا البشر منتصرة بعقيدتها وقد حازت رضى فاطرها, وأنعم بها من حيازة لا تجارى.

قال الأستاذ الشهيد سيد قطب معلقاً على تلك الآيات الكريمات, وعلى تلك النهاية المحمودة لأصحاب الأخدود في كتابه الميمون معالم في الطريق: إن القيمة الكبرى في ميزان الله هي قيمة العقيدة, وإن السلعة الرائجة في سوق الله هي سلعة الإيمان, وإن النصر في أرفع صوره هو انتصار الروح على المادة, وانتصار العقيدة على الألم, وانتصار الإيمان على الفتنة.. وفي هذا الحادث انتصرت أرواح المؤمنين على الخوف والألم, وانتصرت على جواذب الأرض والحياة, وانتصرت على الفتنة انتصاراً يشرف الجنس البشري كله في جميع الأعصار.. وهذا هو الانتصار.. إن الناس جميعاً يموتون, وتختلف الأسباب. ولكن الناس جميعاً لا ينتصرون هذا الانتصار, ولا يرتفعون هذا الارتفاع, ولا يتحررون هذا التحرر, ولا ينطلقون هذا الانطلاق إلى هذه الآفاق.. إنما هو اختيار الله وتكريمه لفئة كريمة من عباده لتشارك الناس في الموت, وتنفرد دون الناس في المجد, المجد في الملأ الأعلى, وفي دنيا الناس أيضاً. إذا نحن وضعنا في الحساب نظرة الأجيال بعد الأجيال ! لقد كان في استطاعت المؤمنين أن ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لإيمانهم. ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم ؟ وكم كانت البشرية كلها تخسر ؟ كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير, معنى زهادة الحياة بلا عقيدة, وبشاعتها بلا حرية, وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد ؟ إنه معنى كريم جداً, ومعنى كبير جداً, هذا الذي ربحوه وهم بعد في الأرض, ربحوه وهم يجدون مس النار, فتحرق أجسادهم الفانية. وينتصر هذا المعنى الكريم الذي تزكيه النار.اهـ

وحتى تتضح الصورة في أذهان أتباع الحق, ويدرك كل موحد وصاحب دعوة, أن الانتصار الحقيقي هو انتصار العقيدة وعلو المبادئ والقيم, نأخذ مثالاً شاخصاً حياً من زماننا الحاضر, زمن جاهلية القرن العشرين.. فهذا معلم الأجيال سيد قطب وما أدراك ما سيد..؟! فيوم أن تهاوت الهامات راكعة على أعتاب ورثة الخنا والفجور, تستجدي لقيمات حقيرة, تبيع دينها بدنيا غيرها ثمناً لها.. شمخ سيد وعلا بمبادئه, وسما بروحه واستعلى بعقيدته ودينه, وركل الدنيا وجاهها, وهجر زخرفها وزينتها, بعد أن أقبلت عليه تستجديه صاغرة حقيرة, وأبى إلا أن يبلغ رسالة ربه, ويؤدي أمانة الأنبياء والرسل, ضارباً بعرض الحائط الوعد والوعيد, محتسباً سياط الجلادين, مستعلياً على حبل المشنقة الذي يلوح أمام ناظريه صبح مساء, رحل سيد وإصبعه الذي طالما سطر فيه تلك الكلمات الخالدة, شامخاً في وجه الطاغوت الناصري, لا يقر له بقرار ولا يدين له بولاء.

رحل سيد بجسده وتوارى تحت الثرى, وبقيت كلماته الحية التي عرَّى فيها الجاهلية وسدنتها, وكشفت زيف أولياء الأمور, ورسمت معالم ردتهم وكفرهم للعالمين, قناديل معلقة يستهدي بها أبناء التوحيد وأتباع الرسل, وقد أطبق ليل الجاهلية بأستاره على حاضر البشرية المؤلم.

مضى سيد لتنتصر عقيدته ولتعلوا مبادئه, ولتبقى كلماته شاخصة حية متمكنة منتصرة, ولتغدو سيرته اللاحبة عنواناً ساطعاً, ومنارةً سامقةً, وبرهاناً دامغاً بنصر أتباع الرسل وورثتهم, والتمكين لهم في قلوب العالمين, حتى لو غابت أجسادهم وتوارت هيئاتهم, ولم تقر أعينهم بالنصر والتمكين: { إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ }.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين